

الفصل الثالث  
مفهوم الأسطورة  
فى  
القرآن الكريم

obeikandi.com

## القرآن حمال أوجه

روى عن عليّ بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أنه قال لابن عباس رضي الله عنه - حين أرسله لمناظرة الخوارج - : " لا تجادلهم بالقرآن، فإنه حمال أوجه، وجادلهم بالسنة "، وعلى الرغم من شهرة هذه الرواية لورودها في أكثر من مرجع، إلا أن بعض الباحثين جعله من كلام ابن عباس لعلي، وليس من كلام علي لابن عباس، والبعض الآخر شكك في هذه الرواية، بحجة أنه " لم يقف على سند يوثق به في نسبة العبارة المذكورة.... إلى علي بن أبي طالب، فقال: تمسك بعض الناس بالكلمة التي رويت عن الإمام علي - كرم الله وجهه - حين وجه ابن عباس - رضى الله عنهما - لمحاكاة الخوارج، فقال له: لا تجادلهم بالقرآن فإنه حمال أوجه، وخذهم بالسنن، ولا أدري مدى صحة هذه الكلمة إلى علي، فقد بحثت عنها في مظان كثيرة فلم أجدها <sup>٣٤</sup> رغم اشتهاها، لكن الشهرة ليست دليل الصحة. ولقد اتخذ بعض الناس من كلمة أمير المؤمنين علي تكأة، يعتمدون عليها في دعوى عريضة: أن القرآن يحتمل تفسيرات مختلفة، وأفهاماً متباينة، بحيث يمكن أن يحتج به على الشيء وضده، ولو صح ما ادعوه على القرآن الكريم، لم يكن هناك معنى لاجتماع الأمة <sup>٣٥</sup> بكل طوائفها

( ٣٤ ) بل وجدت في أكثر من مرجع، فقد عزاها السيوطي لابن سعد في الطبقات، حيث قال: أخرج ابن سعد عن عكرمة، قال: سمعت ابن عباس يحدث عن الخوارج الذين أنكروا الحكومة، فاعتزلوا علي بن أبي طالب، قال: فاعتزل منهم اثنا عشر ألفاً، فدعان علي، فقال: اذهب إليهم فخاصمهم، وادعهم إلى الكتاب والسنة، ولا تمأجهم بالقرآن، فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة، وأخرج ابن سعد، عن عمران بن مناح قال: فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين أنا أعلم بكتاب الله منهم، في بيوتنا نزل، فقال: صدقت، ولكن القرآن ذو وجوه، يقول ويقولون، ولكن حاجتهم بالسنة.....

( ٣٥ ) اجتمعوا على النص، واختلفوا في تفسير كثير من آياته.

على أن القرآن هو المصدر الأول للإسلام، عقيدة وشريعة، ولم يكن هناك معنى لوصف الله تعالى القرآن بأنه نور وكتاب مبين<sup>٣٦</sup>.....

وأرى أن هذا الكلام فيه نظر، ذلك أن القرآن الكريم هو المرجع الأساسي لتنظيم حياة الناس في جميع مناطق الكرة الأرضية، وهو صالح لكل الأقطار والعصور، فلو فرضنا أن له معنى واحداً لكان ذلك موافقاً لنظام معين من أنظمة الحياة، ولم يكن صالحاً لكل العصور، فنظم الحياة على الكرة الأرضية مختلفة ومتباينة، فنظام الحياة في أوروبا وأمريكا يختلف عنه في القارة الإفريقية، وأسلوب الناس في حياتهم في آسيا يختلف عن مثيله في القارات الأخرى، كما أن الحياة بكل أشكالها تتطور وتتجدد باستمرار، فأني لنص معين المعنى يمكن أن يطبق على كل هذه الأشكال المختلفة مكاناً وزماناً، كذلك لو كان المعنى واحداً لما كان هناك هذا الكم الهائل من الآراء الفقهية المختلفة، ولهذا لا ينبغي أن يفهم من أن اختلاف معنى كثير من نصوص القرآن الكريم يقدر فيه، بل بالعكس، هو ميزة تميزت بها عن كل النصوص الدينية السابقة - واللاحقة أيضاً، لو فرض أن هناك نص مستجد في المجال الديني في أي بقعة من بقاع الأرض -، فقد جاءت النصوص الدينية الأخرى قاطعة في معنى واحد، ولهذا فقدت صلاحيتها لكل الناس، وعجزت عن تلبية مطالب الحياة المتجددة والمتطورة في كل بقاع الأرض.

أما الإسلام، فهو بمعانية المختلفة لكثير من نصوصه المقدسة - الواردة في القرآن الكريم - صالح لكل المجتمعات الإنسانية، إذ يطبق كل مجتمع المعنى الذي يناسبه، ويطبق من الآراء - المعتمدة على اختلاف المعنى - ما يصلح، ويناسب

٣٦ ( فاختلاف التفاسير نور وهداية لكل البشر في جميع الأقطار والعصور، أما التفسير الواحد فهو نور وهداية لقرن بعينهم وزمان محدد.

ظروفه، فلو رجعنا إلى ما بيناه سابقاً من اختلاف المعنى في النصوص التي تحدثت عن أحداث وقعت في سابق العصور، لتبين لنا أن النص الذى يحتمل معانى متعددة تصلح لمخاطبة العامة، وتقنع الفلاسفة والمفكرين، وتلبى الاحتياجات المختلفة والمتعددة في المجتمعات الإنسانية، على اختلاف مناطقها الجغرافية، وتنوع ثقافتها، وتعدد درجات حضاراتها، لا يقدر على صياغته أحد من البشر، مهما بلغت درجة ثقافته وفكره، إذ لا يقدر على ذلك إلا العليم بأحوال البشر جميعاً، والملم بما سيحدث لها من التطور والتجديد، وهو الله ﷻ. وسوف نبين جانباً من ذلك في الأمثلة الآتية.

## هدف الأسطورة في

### القرآن الكريم

وردت الأساطير في النصوص الدينية لمقدسة لجميع الأديان... حتى الإسلام، إلا أن ما يفهمه عامة الناس ومتوسطى الثقافة مما ورد في القرآن الكريم على أنه أسطورة - وهذا عنصر حتمت وجوده توجيه الرسالة لجميع الطوائف المختلفة في الفكر والثقافة كما بينا ذلك سابقاً - يستطيع الفيلسوف وأرباب الفكر والمعرفة أن يستخرجوا منه قواعد منهجية أعلى درجة من الجانب العلمي والفلسفي؛ فبعض نصوص القرآن الكريم التي يفهم من ظاهرها أنها أسطورة، حتمتها طبيعة الشعوب لجذبهم إلى التعاليم الدينية، هي في الوقت نفسه تعطي للفلاسفة والعلماء إشارة إلى ما يجب عليهم أن يلتزموه في بحوثهم العلمية، فهي تعتبر كنوزاً علمية أعلى درجة من البحث العلمي، يستخرجها ويستنبطها العلماء على مر العصور والأزمان، فعلى سبيل المثال:

### الخضر

يقول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا جَاءْنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتِينَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ



ملكبان بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وذكروا له كنيستان، الأولى: أبو محمد، والثانية: أبو العباس، أما لقب: الخضر، - واختلفوا في سبب إطلاق هذا اللقب عليه -، فقيل: إنه جلس على فروة بيضاء فصارت خضراء، وقيل: إنه مرَّ بأرض بيضاء، فإذا هي تمتاز خضراء من خلفه، وقيل: سمي خضراً لحسنه وإشراق وجهه. واختلفوا في اسم أبيه فقيل: إنه ابن آدم لصلبه، وقيل: إنه ابن فرعون، وقيل: ابن العيص، وقيل: ابن كلبان.

٢. ذكروا روايات عدة حول نشأته، من أشهرها: أنه كان من أبناء الملوك، وقد كان رافضاً لفكرة الزواج، التي ألح عليها أبوه فيها، فاضطر للموافقة، فكان زواجه صورياً، ولما أصر والده على زواج فعلى، ترك القصر وولى بعيداً. وقد ظهر في أماكن مختلفة، وقام بعجائب كثيرة، وظهرت نبوته على الملأ في مواقع مختلفة. لكن المفسرين والعلماء يختلفون في مصيره، فمنهم من يقول: إنه مات من زمن طويل. ومنهم - وهم غالبية علماء الأمة وكثير من مشايخ الصوفية - من يذهب إلى أنه لا يزال على قيد الحياة إلى يومنا هذا، وأنه لم يمضَ فما زال يعيش بيننا، وقد شاهده الكثير من علماء وأبناء الأمة الإسلامية، ولهم في هذا الأمر روايات، بأنه قابل فلاناً، وألبس فلاناً خرقة، وأعطى فلاناً عهداً.... إلى آخر ما يقصون وينسجون من أقاويل ما أنزل الله بها من سلطان.<sup>٣٧</sup>

(٣٧) يقول ابن القيم في كتابه "المنار المنيرة في الحديث الصحيح والضعيف": "إن كل الأحاديث الذي يذكر فيها الخضر وحياته.. كذب، ولا يصح في حياته حديث واحد، فحديث أن رسول الله كان في المسجد، نسمع كلاماً من ورثته، فذهبوا ينظرون فإذا هو الخضر. وحديث: يلتقي الخضر وإليس كل عام. وحديث:

٣. ذكر ابن كثير أسطورة أخرى حول هذه القصة تتعلق بالحوت: "... فرجع موسى حتى أتى الصخرة، فوجد الحوت، فجعل الحوت يضرب في البحر ويتبعه موسى، وجعل موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء يتبع الحوت، وجعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا ييس عنه الماء حتى يكون صخرة، فجعل نبي الله يعجب من ذلك حتى انتهى به الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر فلقى به الخضر....." <sup>٣٨</sup>

بل إن الثعالبي روى لنا في هذا الصدد قصة لا يقبلها العقل، ولا تستقيم مع

يجمع بعرفة جبريل وميكائيل والخضر. وسئل إبراهيم الحربي عن تعمير الخضر، وأنه باق، فقال: ما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان. وسئل الإمام البخاري عن الخضر وإلياس، هل هما أحياء؟ فقال: كيف يكون هذا؟ وقد قال النبي ﷺ: " لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد " (رواه الشيخان)، وسئل عن ذلك كثير غيرهما من الأئمة، فقالوا - مسندلين بالقرآن - : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنَّ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وسئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال: لو كان الخضر حياً لوجب عليه أن يأتي النبي ﷺ، وبجاهد بين يديه، ويتعلم منه، وقد قال النبي ﷺ يوم بدر: " اللهم إن تمكك هذه العصاة لا تعبد في الأرض "، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، فأين كان الخضر حينئذ؟

فالقرآن، والسنة، وكلام المحققين من علماء الأمة ينفي حياة الخضر كما يقولون: فالقرآن يقول: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنَّ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ [٣٤]، فالخضر إن كان بشراً فلن يكون خالداً، حيث ينفي ذلك القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ فإنه لو كان موجوداً لجاء إلى النبي ﷺ، فقد قال عليه الصلاة والسلام: والله لو أن موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني " (رواه أحمد عن جابر بن عبد الله)، فإن كان الخضر نبياً، فليس هو بالفضل من موسى، وإن كان ولياً، فليس أفضل من أبي بكر. وما الحكمة في أن يبقى طيلة هذه المدة - كما يزعم الزاعمون - في الفلوات والقفار والجبال؟ ما الفائدة من هذا؟ ليس هناك فائدة شرعية، ولا عقلية من وراء هذا. إنما يميل الناس دائماً إلى الغرائب والعجائب والقصص والأساطير، ويصورونها تصويراً من عند أنفسهم ومن صنع خيالهم، ثم يضيفون عليها ثوباً دينياً، ويروج هذا بين بعض السذج، ويزعمون أن هذا من دينهم، ولكن ليس هذا من الدين في شيء... فالحكايات التي تحكى عن الخضر إنما هي من مخترعات ما أنزل الله بها من سلطان.

المنطق السليم، لم أسردها في النص تخفيفاً على القارئ، وذكرتها كاملة في الهامش، لأعطي لمن يقرأها صورة واضحة عن مدى تغلغل الأسطورة في الفكر الإسلامي مستنداً إلى إشارات في القرآن الكريم لا تمت إلى الأسطورة بصلة.<sup>٣٩</sup>

٣٩ ( جاءت هذه الأسطورة تحت عنوان: " فصل في بدء أمر الخضر عليه السلام ": يروي أن رسول الله ﷺ لما أسرى به إلى السماء، بينما هو على البراق، وجبريل يمر به، إذ وجد رائحة طيبة، فقال: يا جبريل ا ما هذه الرائحة الطيبة؟ قال: إنه كان ملك في الزمان الأول، له سيرة حسنة في أهل مملكته، وكان له ابن، ولم يكن له ولد غيره. قال أصحاب الأخبار: وكان أبوه ملكاً عظيماً، فسلمه إلى المؤدب ليؤدبه، وكان يختلف إليه، وكان بين منزله ومودبه رجل عابد كان يبره، فأعجبه حاله فألفه، وكان يجلس عنده والمعلم يظن أنه في المنزل، وأبوه يظن أنه عند المعلم، حتى شب ونشأ وأخذ من اعانده شمائله وعبادته، فقالوا لأبيه: ليس لك ولد غيره يرث مملكك، فلز زوجته لعله يرزق أولاداً، فعرض عليه التزويج فأبى، ثم عاوده فرضى، فزوجه جارية من بنات الملوك فزفت إليه. فلما بقيت عنده قال لها: إن مخزك بأمر، إن أنت سمعته صرف الله عنك شر الدنيا وعذاب الآخرة، وإن أفشيت سرى عنك الله في الدنيا والآخرة. قالت: وما ذلك؟ قال: إن رجل مسلم لست على دين أبي، وليست النساء من حاجتي، فإن رضيت أن تقيمي معي على ذلك، وتتابعيني على ديني فذاك إليك، وإن آيت لحقت بأهلك، فقالت المرأة: بل أقيم معك. فلما أتت عليها مدة، قالوا لأبيه: ما نظن إلا ابك عاقراً لا يولد له ولد، فسأله أبوه، فقال: ما ذلك بيدي، وإنما ذلك بيد الله يوتيهِ من يشاء، فدعا المرأة وسألها فرددت عليه مثل ما رد عليه الخضر، فمكث أبوه زماناً، ثم دعا ابنه إليه، فقال له: أحب أن تطلق امرأتك هذه، وأزوجك امرأة غيرها ولوداً، ربما ترزق منها ولداً، فكره ذلك الخضر، وألح عليه أبوه حتى فرق بينهما وزوجه امرأة غيرها ولوداً نبياً، فعرض عليها الخضر مقالته الأولى، فرضيت، وقالت: أقيم معك، فلبث زماناً، ثم إن أباه استبطأ الولد منه، فدعاه وقال له: ليس يولد لك؟ فقال: ليس ذلك بيدي، ولكنه بيد الله، ثم إنه دعا امرأته وقال لها: أنت امرأة شابة ولود، وقد كنت ولدت عند غير ابني، ولست تلدين عند ابني، فقالت: ما مسني منذ صحبتي، وكذلك المرأة الأولى، فدعاها وسألها، فقالت: مثل ذلك، فدعا ابنه وغيره وعفته، ففرغ من أبيه ولم يأمن على نفسه منه، فخرج من عنده: فهام على وجهه، ولم يدر أحد من خلق الله تعالى، أين توجه، فندم أبوه على ما فعل، فأرسل في طلبه مائة رجل من طرق شتى مختلفة، فانطلقوا في طلبه، فأدركه منهم عشرة في جزيرة من جزائر البحر. فقال لهم: إني أقول لكم شيئاً واحداً فاكموه عني. فإن كتمتموه صرف الله عليكم شر الدنيا وعذاب الآخرة، وإن آيتم ذلك وأفشيت سرى عنكم الله في الدنيا والآخرة، قالوا له: قل ما شئت، قال: هل بعث أبي في طلبي أحداً غيركم؟ قالوا: نعم، فقال لهم: إذا فاكموا أمرى ولا تخفروا أبي أنكم رأيتموني، وقولوا مثل قول نظائركم الذين أرسلهم في طلبي فلم يروني، لأنكم إن أخترتموه بي أو ذهبت بي إليه قتلني وصرتم أنتم مواخذين بدمي. قال: فحلوا عنه وانصرفوا. فلما دخلوا على أبيه قال تسعة منهم: قد

وجدناه وقال لنا كيت وكيت فخلينا عنه . وقال العاشر : ما لنا به علم ومالى به خبر ، والتسعة قالوا : بل ظفرونا به وإن شئت أتيناك به ، فقال لهم : ارجعوا في طلبه وأتون به ، وإن الخضر خاف أن يظفروا به ، فأنحاز من ذلك الموضوع إلى موضع آخر ، فأتوا إليه فلم يجدوه ، فرجعوا وقالوا : لم نره ، فقتلهم أبوه . قال : وإن أباه دعا بالمرأة الشيب وقال لها : أنت صنعت هذا بابني حتى هرب فقتلها ، وسمعت المرأة الأولى بذلك فهربت مخافة القتل ، وقال العاشر الذى أنكر رؤيا الخضر : ما يومئى أن يقتلنى كما قتل التسعة ، فهرب حتى أتى قرية ، فإذا المرأة الهاربة أيضاً في تلك القرية فكانت تحتطب ، فقالت يوماً : باسم الله ، فسمعتها الرجل الهارب ، فقال لها : من أنت ؟ فأخبرته خبرها ، فقال : يا هذه أنا العاشر ، خرجت خوف القتل ، فهل لك أن أتزوجك ونعبد الله حتى نموت ؟ فقالت : نعم ، ثم إنهما انطلقا حتى أتيا قرية فيها بعض من الفراعنة ، فاتخذتا بيتاً من قصب ، ومكنا فيه ، ووزقا فيه بثلاثة أولاد ، فقال لها الرجل : إذا أنا مت فادفنينى في هذا البيت ، وكذلك كل من مات منكم ، فإنى لا أحب أن تكون قبرونا مع هؤلاء ، فإذا كان آخرنا موتاً يوصى أن يهدم البيت ، فمات الرجل فدفنته امرأته ، ثم إنه بلغ فرعون زمامهم أنهم يوحدون الله ويعبدونه ، فجىء بالمرأة إلى حضرته ، فأمرها أن ترجع عن دينها فأبت ، فأمر بقدر من نحاس فملئت ماء وأغلى غلياناً شديداً ، وأمر بالمرأة وولدها ، فلما أحضروا قال لها : إرجعى عن دينك ، وإلا ألقيتك أنت وأولادك في هذا القدر ، فأبت عليه ، فأمر بولدها الأكبر فألقى فيه ، ففسخ فيه ، وكذلك الثانى ، وكان في حجرها ابن رضيع فأرادوا إلقاءه ، فرقت المرأة ونازعتهم في شأنه ، فتكلم الغلام الرضيع وقال لها : إصبرى فإننا جميعاً في الجنة ، فلما أرادوا أن يلقيها في القدر قالت لهم : لى إليكم حاجة بسيرة ، قالوا : وما هى ؟ قالت : إذا رميتونى في القدر فادفنوها بما فيها من عظامنا في بيتنا واهدموه علينا ، ففعلوا ذلك ، فلما أسرى برسول الله ﷺ وجد رائحة طيبة ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ فأخبره بقصتهم وقال : هذه رائحتهم . ويروى أن جبريل ﷺ قال لرسول الله ﷺ : إن قوماً من أهل تلك المدينة ركبوا البحر في تجارهم ، فضربتهم الأمواج فتكسرت بهم سفينتهم ، فانفلت منهم رجالان على ألواح من ألواحها ، فضربتهما الأمواج حتى أسندتهما إلى جزيرة من جزائر البحر ، فخرجا بجولان في الجزيرة ، فإذا هما بالخضر ﷺ وعليه ثياب بيض وهو قائم يصلى ، فجلسا حتى فرغ من صلاته ، فالتفت إليهما وقال لهما : من أنتما ؟ قالوا : نحن من مدينة كذا وكذا ، خرجنا في البحر لطلب التجارة ، فانكسرت بنا هذه السفينة ودفننا إلى هذه الجزيرة ، قال : اختاراً ! إن شئتما أن تقيما في هذا الموضع تعبدان الله وتأتيكما أرزاقكما ، وإن شئتما أردكما إلى منزلكما ؛ قالوا : بل تردنا إلى منازلنا ، فقال لهما : على أن تعطيان عهد الله وميثاقه على أنكما لا تختبران بشيء مما تريانه ، فأعطياه العهد والميثاق على الكتمان ، فنظر فإذا سحاب مرم ، فدعاهن وسألهن ، فقالت كل واحدة منهن : أريد بلد كذا وكذا ، فدعا لى تريد بلادهما فقال لها : إحملى هذين حتى تضعيهما على سطحيهما ، فعزم أحدهما على الكتمان ونزل إلى منزله ، وعزم الآخر على إذاعته فنزل من سطحه وخرج من بابه وانطلق إلى باب المدينة ، ونادى : النصيحة ، فأدخل على الملك ، فقال له : ما نصيحتك ؟ فقال : رأيت ابنتك في موضع كذا وكذا وصنع بى كذا وكذا ، فقال له : من يعلم ذلك ؟ قال : فلان كان رقيقى ، فبعث إليه وسأله عما قال ، فقال : أما ركوب

البحر فقد ركبتا جميعاً، وقد لتكسرت بنا السفينة، وصرنا على لوح من ألواحها، فلم تزل الأمواج تضربنا حتى صرنا إلى الساحل، فخرجنا من البحر، فلم نزل نعيش من الشجر ونبات الأرض والتمر، ترفعنا أرض وتضعنا أخرى حتى انتهينا إلى منازلنا، فقال له الغادر: إبعث معي رسلك حتى أدفعه إليك وتعلم أن هذا قد كذب، فأمر بالرجل الكاتم فحبس، وتوعده بالصبب إن وفي صاحبه بما قال، وأوعد الغادر بالصلب إن كذب ولم يأت به، فبعث معه رسلاً فركبوا البحر حتى انتهوا إلى الجزيرة، فطلبوا الخضر فلم يجدوا شيئاً، فرجعوا بالرجل إلى الملك وقالوا له: هذا أكذب خلق الله. ما رأينا مما قال شيئاً، فصلبه وخلي عن الآخر، ثم إن أهل تلك المدينة لم يزالوا يعملون المعاصي حتى غضب الله عليهم. قال جريرل <sup>الطيفي</sup>: فبعث الله تعالى إليهم، فأدخلت جناحي تحتها واقتلتها، فرفعتها حتى سمع أهل سماء الدنيا نباح الكلاب وصياح الديوك، ثم أمرني فألقيتها، فحاءت تموى بمن فيها حتى انتهت إلى وجه الأرض، فبقي بيت الرجل الكاتم والمرأة الكاتمة من جانب سالمين، ثم انطبقت الأرض بمن فيها، فلم ينج منهم غيرهما، فجعلوا يدوران في حدود المدينة فلا يلقي كل واحد منهما غير صاحبه، فما أن كثر ذلك، قال الرجل: أيتها المرأة لقد رأيت ما أصاب القوم، وإنه لم يفلت غيري وغيرك، فبأى شيء نجونا؟ فأخبريني وأنا أخبرك، فعاهد كل واحد منهما صاحبه على الكتمان فتصادقا، فإذا قصتهما واحدة وإنما نجاهما الكتمان، فقال لها: هل لك أن تزوجيني نفسك وتخرج إلى مدينة من هذه المدائن فأكتسب عليك وتكسبين عليّ حتى يقضى الله من أمرنا ما يشاء؟ ففعلت، فذهبوا إلى مدينة فرعون من القراعنة، فاتخذوا لها بيتاً وولداً لهما أولاداً، وتلطفت المرأة لآل فرعون وصارت ماشطة لهم فحظيت عندهم، فبينما هي ذات يوم قاعة تُسرح رأس بنت الملك إذ سقط المشط من يدها، فقالت: باسم الله، تمس من كفر بالله، ففزعت الجارية من ذلك وقالت لها: من الله؟ قالت: ربي، فقالت لها: أو إن لك لرباً غير أبي؟ فقالت: نعم، هو ربي ورب أهلك ورب كل شيء، فببطت الجارية ودخلت على أبيها وقالت: تعلم أن فلانة تقول قولاً عجيباً، تقول كذا وكذا، فأرسل إليها فحضرت، فقال لها: ما هذا الذي بلغني عنك؟ فقالت: هو ما بلغني، فهل أحد يقول بقولك؟ قالت: بعلى وصيبي، فبعث إليهم وامتنحهم، فإذا هم يقولون قولاً واحداً، فقال لهم: إنا لا نفر كم على ما أنتم عليه حتى ترجعوا إلى ديننا، فقالوا له: إصنع ما أنت صانع، فأمر بقدر من نحاس عظيمة، فملكت ماء، ثم أشعل تحتها حتى اضطرب الماء، ثم دعا بالصبية فعرض عليهم واحداً واحداً ليكفروا، فأبوا أن يكفروا، فأخذهم وطرحهم في القدر، ثم إنه دعا بالزوج وعرض عليه الكفر فأبى، فألقاه في القدر، ثم دعا بالمرأة وقال لها: إن لك علينا حقاً، فإن أنت رجعت إلى ديننا وإلا ألقيناك في القدر، فقالت له: إصنع ما أنت صانع، ثم إنما قالت له: لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قالت: إذا صنعت ما أنت صانع، فمر بييتنا أن يحفر فيه حفرة، ثم تأمر بالقدر فتحمل بما فيه، ثم يأتون به متزلزلاً، فيسكب ما في القدر في الحفرة، ثم يعاد علينا التراب، ثم يهدم علينا البيت ففعل ذلك، فهذه الراحة والراحة المسك تسطع من بيتهم إلى يوم القيامة، فهذه قصة الخضر مع أبيه وبدء أمره" [التعالى ص ٢٢٠- ٢٢٣]

وهذا كلام يستهوى العامة من الناس، لكن لا يقبله المفكرون، ولا يؤمن بصحته ذووا العقول السليمة، ولهذا لم يرد مثل هذا الكلام في القرآن الكريم، لأنه كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا الكلام في حقيقته باطل، لا أصل له، إنما هو خرافات نسجها الفكر الإسلامى ليستولى به على عقول العامة.

١. هوية الحوت العجبية، فقد ذكروا أنه كان حوتاً ميتاً، إذ يزعمون أنه قيل لموسى عليه السلام: خذ حوتاً ميتاً، فحيث ينفخ فيه الروح من مسه ماء عين يبعث الحياة في الأموات، تجدد رجلاً من عبادنا، وهو - كما يزعمون اسمه الخضر-.

٤. ثم تحدثوا عن كفر الغلام وأسهموا في الحديث عن كل ماورد في القصة، سواء كان شخصاً أم مكاناً.

لم يذكر القرآن الكريم شيئاً عن كل مانسجوه من أساطير حول هذه القصة، فإذا كان الأمر كذلك، وإذا لم يكن القصد من سرد هذه الرواية نسج أسطورة، أو الإيحاء بخرافة، فما هو الهدف من ورودها في كتاب مقدس أوحى به إلى رسول ليعلمه لمن أرسل إليهم؟

لو استعرضنا عناصر التقدم والرقى في المجتمعات الإنسانية، لوجدنا أن من أهم العناصر - إن لم يكن أهمها - التي تتركز الحضارة عليها، بل تعتبر عمودها الفقرى الذى لا يستقيم بناء المجتمع إلا بها، ولم تنتج البشرية ما نراه اليوم من مظاهر الحياة على جميع المستويات إلا بواسطتها، ولم يتمتع الإنسان بحياة الرفاهية وسهولة الاتصالات إلا بالاعتماد عليها، واتخاذها أساساً لكل ما أنتجته من وسائل قربت المسافات، واختصرت الزمن، وذلك كل العقبات التى تواجهه.

لم يرق ذلك كله إلا على البحث العلمي القائم على أساس كشف المستور في آفاق الأرض وفجاج الكون، وذلك بالسؤال عن أسباب الظواهر المحيطة بالإنسان، ومحاولة ما يكتنفها من غموض، ويكمن وراءها من دوافع، فقد استقر في ذهن الباحثين أن الإجابة عن هذه الأسئلة: لِمَ؟، وكيف؟، ولماذا؟، وأين؟، وماهي الأسباب؟، وما العلة؟، وما العلاقة بين الظواهر؟، وما كنه هذه الظواهر؟..... إلخ، هي مقدمة تقدم، وأساس اكتشاف ما خفى عنا، وبالتالي هي نقطة انطلاق الاكتشافات في جميع مظاهر الحياة، سواء ما يتعلق منها بالإنسان أم الطبيعة، أم الفضاء الكوني، وما يحيط به من عناصر وأفلاك، وما هو كائن في باطن الأرض من ثروات: معادن وكنوز مختلفة التكوين والاستخدامات.

ومن هنا فإن التسليم بما يراه الإنسان ويسمعه دون السؤال عما وراءه، وعن أسبابه، هو علامة على الانكماش والتقوقع في المكان، مما يجعل المجتمع غير قادر على التقدم خطوة واحدة، ولهذا كان الحكم على ظواهر الأشياء دون البحث - أو السؤال - عما يكمن وراءها، أو محاولة الكشف عن أسبابها خطأً فاحشاً في مجال البحث العلمي، بل لا يمكن أن يسمى بحثاً إلا بالسؤال عن الأسباب. فالبحث عن أسباب الحوادث والظواهر هو أولى خطوات العلم، وبداية الطريق إلى التقدم في جميع مجالات الحياة.

ولما كان هذا هو العنصر الأساسي في بناء الحضارة، والإسلام يحث المسلم على الإسهام في هذا البناء، فقد نصح المسلم ألا يسلم بظواهر الأشياء ويبنى عليها حكماً، لأنه سوف يكون - في الغالب - حكماً غير صحيح، وبالتالي يكون عقبة في سبيل التقدم والرقى؛ فقصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح تشير إلى هذا إشارة واضحة، حيث أن موسى عليه السلام حكم بخطأ العبد الصالح من

ظاهر العمل، فلم يسأل عن السبب، بل اعترض - بناءً على الظاهر - على ما فعله العبد الصالح من حرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار.

وعليه فقد فهم العامة ومتوسطو الثقافة القصة على وجه أوحى إليهم بنسج أخبار وحكايات - هي في جوهرها خرافات وأساطير - حول: اسم العبد الصالح، ومن أين جاء، وإلى أين ذهب، كما خاض الخيال في وصف الحوت والماء الذي يجي الموتى، وكفر الغلام... وغير ذلك - كما بينا ذلك سابقاً - من أخبار لم يشر القرآن الكريم إلى شيء منه، فهي محض خيال تُسَلَّى شريحة من المجتمع تميل إلى مثل هذه الخرافات والأساطير، وقد تنمى فيهم نوعاً من الإيمان الذي يربطهم بالنصوص المقدسة.

لكن المفكرين والفلاسفة يرون في هذه القصة جانباً سامياً، وإشارة واضحة إلى ما ينبغي على الإنسان الالتزام به، ألا وهو عدم الحكم على ظواهر الأشياء، بل لا بد من معرفة أسبابها، والوقوف على كنهها وعللها حتى يكون ذلك أساساً للتقدم العلمي، وقاعدة متينة للازدهار الحضارى.

وهذا دليل واضح على أن القرآن الكريم كلام الله الذى يعلم تركيب المجتمع البشرى، حيث يحتوى على طبقات يكمن زمام فكرها، ومقود توجيهها والتأثير عليها في ثنايا القصة التي توحى بالخيالات والصور الأسطورية، كما يوجد فيه - أى المجتمع البشرى - مفكرون وفلاسفة لا يشبع لهمهم الفكرى إلا صور غاية في الدقة العلمية والمضمون المعبر عن قضايا ذات هدف يودى إلى الإشباع الفكرى والتقدم الحضارى. ومن هنا جاء التعبير فيه موثماً لكلتا الطبقتين، حيث تنتزع الأولى منه ما يشبع خيالها الأسطورى ويلى فهمها الخرافى، وفي الوقت نفسه يستنتج منه الفلاسفة قواعد علمية على أعلى درجة من البحث والتنظير الفكرى.



آدم<sup>٤٠</sup>، وهو رأى جميع المفسرين القدامى، حيث قالوا: لما أسكن الله تعالى آدم الجنة كان يمشى فيها وحيداً، لم يكن له من يجالسه ويؤانسه، فألقى الله عليه النوم، فأخذ الله ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر، يقال له: القُصْبِرَى، فخلق منه حواء من غير أن أحس آدم بذلك، ولا وجد له الماء، ولو أولم آدم بذلك لما عطف رجل على امرأة، ثم ألبسها من لباس الجنة، وزينها بأنواع الزينة، وأجلسها عند رأسه، فلما هب آدم من نومه رآها قاعدة عند رأسه، فقالت الملائكة لآدم يمتحنون علمه: ما هذه يا آدم؟ قال: امرأة، قالوا: وكان اسمها؟ قال: حواء، قالوا: صدقت، ولم سميت حواء بذلك؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي، قالوا: ولماذا خلقها الله تعالى؟ قال: لتسكن إلى وأسكن إليها، وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، قال النبي ﷺ: "خُلِقَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ ضِلْعِ أَعْوَج، فَإِنْ تَقِيمَهَا تَكْسِرُهَا، وَإِنْ تَتْرَكَهَا تَسْتَمْتِعَ عَلَى عَوْجِهَا"<sup>٤١</sup> وقيل: الحكمة في أن الرجال يزيدون على مرور الأيام والأعوام حسناً وجمالاً، لأنهم خَلِقُوا مِنَ التُّرَابِ، وَالطِّينُ يَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ حِدَةً وَجَمَالاً. وَالنِّسَاءُ يَزِدُّدْنَ عَلَى مَرُورِ الْأَيَّامِ قَبْحاً لِأَنَّهُمْ خُلِقُوا مِنَ اللَّحْمِ، وَاللَّحْمُ يَزْدَادُ عَلَى مَرُورِ الْأَيَّامِ فُسَاداً<sup>٤٢</sup>

لم يرد شيء من هذا كله في الآيات التي تحدثت عن خلق حواء في القرآن الكريم، بل جاء في التوراة، حيث ورد في سفر التكوين أن آدم عندما لم يجد له

(٤٠) الرازي ج ٩ ص ١٣١.

(٤١) نص الحديث كما جاء في المستدرک: "المرأة خلقت من ضلع أعوج، وأنتك إن أقمته كسرتهما، وإن تركته تعش بها ولبيها عوج". [ج ٤ ص ١٩٢ رقم ٧٣٣٤]

(٤٢) التعلبي ص ٢٩.

معيناً نظير " فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الْإِلَهَ سُبَاتَا عَلَى آدَمَ فَنَامَ. فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلَاعِهِ وَمَلَأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. وَبَنَى الرَّبُّ الْإِلَهَ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. فَقَالَ آدَمُ هَذِهِ الْآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هَذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لِأَنَّهَا مِنْ امْرَأٍ أُخِذَتْ. لِذَلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا " ٤٣

يتضح من هذا أنهم نقلوا ما في التوراة حرفياً، حيث ذكر الطبري بالنص ما يلي: "...بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم، عن عبد الله بن عباس وغيره أن الله ألقى النوم على آدم، ثم أخذ ضلعاً من أضلعه، من شقه الأيسر، ولأم مكانه، وآدم نائم لم يهب من نومته، حتى خلق الله تبارك وتعالى من ضلعه تلك زوجة حواء، فسوّاها امرأة، ليسكن إليها، فلما كشف عنه السنّة وهب من نومته رآها إلى جنبه، فقال - فيما يزعمون، والله أعلم - : لحمي ودمي وزوجتي، فسكن إليها " ٤٤

غير أن الرازي يروي قولاً ثانياً عن أبي مسلم الأصفهاني، ألا وهو: " أن المراد من قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أى من جنسها، وهو كقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [النحل: ٧٢]، وكقوله: ﴿ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقوله: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، إلا أن الرازي استدرك قائلاً: قال القاضي: والقول الأول - وهو خلقها من ضلع آدم - أقوى، لكي يصح قوله: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾، إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداءً، لكان الناس مخلوقين من نفسين، لا من نفس واحدة.

(٤٣) ٢: ٢١ - ٢٤

(٤٤) الطبري: جامع البيان ..... ج ٤ ص ١٥٠.

ويمكن أن يجاب عنه: بأن كلمة " من " لا ابتداء الغاية، فلما كان ابتداء التخليق والإيجاد وقع بآدم عليه السلام صح أن يقال: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾، وأيضاً: لما ثبت أنه تعالى قادر على خلق آدم من التراب كان قادراً أيضاً على خلق حواء من التراب، وإذا كان الأمر كذلك، فأى فائدة في خلقها من ضلع من أضلاع آدم! " ٤٥

فماذا قال العلماء في العصر الحديث في تفسير " النفس الواحدة "؟ قالوا " ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾، أى من نفس المادة التي خلق منها آدم، خلق منها زوجها. فأدم ليس هو النفس، وإنما هو جاء منها، فكما خلق آدم خلقت حواء، لأن الله تبارك وتعالى يقول موضعاً لهذا الرأي: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الناربات: ٤٩]، فكلمة شيء، إذا كانت موجودة في أى وقت، أو مكان، يجب أن يكون فيه زوجان: ذكر وأنثى، لأن الخلق مثنى، فحواء خلقت فوراً مع خلق آدم، بدليل الآية السابقة، إذن، فحواء خلقت، إما مع آدم، جنباً إلى جنب، أو بعد تمام خلق آدم، وعلى أى حال، فهي خلقت بنفس الكيفية، ولا داعى لتكرار طريقة خلقها في القرآن الكريم.

وقيل: إن النفس الواحدة كانت جامعة لأعضاء الذكورة والأنوثة، كالودودة الوحيدة، ثم ارتقت، فصار أفرادها زوجين، فقله تعالى: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾، هذا إجمال فصله ببيان كونه خلق من تلك النفس زوجاً لها، وجعل

النسل من الزوجين كليهما.<sup>٤٦</sup>

ويقول الشيخ شلتوت:

" إن القرآن الكريم حينما يتحدث عن الأصل، الذى تفرع منه الإنسان جعل المرأة شريكة فيه للرجل، ومن مجموعهما تعددت القبائل والشعوب، وانتسبت الأفراد بالبنوة لكل من الرجل والمرأة، وبذلك كان الرجل أباً، وكانت المرأة أمّاً، واعتبر القرآن الكريم ذلك نعمة على الإنسان توجب عليه الشكر، وتوجب عليه تقوى الله ومراقبته، وتوجب عليه النظرة المستقيمة إلى أخيه الإنسان الذى يشاركه فى معنى الإنسانية، وفى نسبه إلى أصله الذى تكوننا منه."

ومعنى هذا أنه لا تفاضل بين المرأة والرجل من جانب الإنسانية، وأن التفاضل إنما يكون بما يكتسبه كلٌّ منهما من الخلال التى ترقى بصاحبه إلى مستوى إنسان أفضل.

ولتوضيح معنى ( من نفس ) نضرب هذا المثال: قال تبارك وتعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ [ الجمعة: ٢ ]، فهل يعنى هذا أنه أخذ قطعة منهم فخلق منها محمداً ﷺ؟ كلا، وإنما هو تعبير مجازى، يدل على أنه من طبيعتهم، من جنسهم، من أنفسهم، من نفس الخلقة، بشر مثلكم، لأنكم لستم ملائكة، فلو كنتم ملائكة لأنزل عليكم ملكاً رسولاً.....<sup>٤٧</sup>

يقول تعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ [ السجدة: ٧ - ٨ ] ظاهر الآية (٧) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ (٨) [ السجدة: ٧ - ٨ ] ظاهر الآية - كما يقول الأصوليون - يدل على أن حواء مخلوقة من طين، وابتداء خلقها - كما خلق زوجها - من طين. قد يعترض على هذا بأنه غير صحيح، لأنه

٤٦ ( رشيد رضا ج ٤ ص ٣٣١ .

٤٧ ( www.islam2all.com

مخالف لما شاع بين أهل الملل لدى اليهود والنصارى والمسلمين أيضاً أن حواء مخلوقة من آدم، من جزء من أجزاء آدم، مخلوقة من ضلع آدم، والنبى هو الذى قال هذا فى أحاديث صحت عنه ﷺ، فقد روى البخارى ومسلم <sup>٤٨</sup> فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته ظل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً " وهذا لفظ البخارى، وفى رواية الأعرج عن أبى هريرة فى صحيح مسلم: فإن ذهبت تقيمها - الضمير يعود على المرأة - كسرتها، وكسرهما طلاقها... وقد أخذ شاعر هذا المعنى فقال فى بيتين:

هى الضلع العوجاء لست تقيمها \* ألا إن قيام الضلع انكسارها  
جمعت ضعفاً وانكساراً على الفتى \* أليس عجيباً ضعفها واقتدارها

هذا المعنى شائع فى أدبيات المسلمين، وأيضاً فى أدبيات أهل الكتاب الأوّل. ولكن قد يرد عليه بالقول: إن النبى ﷺ لم يقل: "إنها خلقت من ضلع آدم"، إنما قال: "خلقت من ضلع" على سبيل الاستعارة والتشبيه، يريد أن يقول: إنما خلقت من طبيعة عوجاء كالضلع، ولم يصرح، بدليل ما رواه البخارى فى صحيحه، لكن هذه المرة فى كتاب النكاح، وليس فى كتاب أحاديث الأنبياء عن أبى هريرة رضي الله عنه. قال ﷺ: المرأة كالضلع... ولم يقل: خلقت من ضلع، والمراد هو التشبيه، وليس القطع بقضية نشؤية، ولو قطع بها النبى لاتبعناه بدون كلام، لأن هذا من مقتضيات الإيمان، لكنه قال: المرأة كالضلع. وأخرجه مسلم فى صحيحه على التشبيه هكذا: "المرأة كالضلع".

(٤٨) بل رواه أيضاً فى: الترمذى، والدارمى، ومسند أحمد، والمستدرک على الصحيحين وغيرها من كتب الحديث.

لماذا اشتهر هذا التصور في الفكر الإسلامي، واعتنقه العامة وكثير من المتخصصين؟

لأن القصة ذكرت في التوراة - كما سبق بيانها -، وقد تضافرت عوامل عدة، ساعدت على شهرتها وانتشارها في المجتمع الإسلامي، من أهمها مايلي:

أولاً: دخل كثير من اليهود والصارى في الإسلام، والمعروف أنهم لم يتخلصوا كلية من ثقافتهم السابقة، بل ظلوا يرددونها، خاصة وأن القرآن الكريم أخبر عن خلق حواء بأسلوب موجز، ولم يدخل في التفاصيل.

ثانياً: عناصر القصة في التوراة مادية محسوسة، وجماهير الناس مولعة بالمادى المحسوس، ولذلك وعتها فرددتها جيلاً بعد جيل.

ثالثاً: لما كانت القصة في القرآن الكريم موجزة، احتاج المفسرون في بيانه إلى الرجوع إلى مصادر أخرى، ينقلون منها التفاصيل، فنقل بعضهم ما جاء في التوراة حول هذه القصة، وهو أن حواء خلقت من ضلع آدم.

لماذا نكثر الحديث حول هذا الموضوع، فسواء خلقت من طين، أو خلقت من ضلع آدم، كله سيان أمام قدرة الله تبارك وتعالى... لكن للمسألة آفاق أبعد وأكثر تعقيداً مما يبدو:

أولاً: كون أمنا حواء خلقت من ضلع آدم هي قضية واردة في التوراة، في أول إصحاحات سفر التكوين، فالمسألة لها أصل إسرائيلي، فهل يمكن أن يقال: إن هذا تسرب إلى المسلمين عن طريق هذه الإسرائيليات، خاصة أن أباهرية ممن أكثر النقل عن بني إسرائيل.....

ثانياً: كون المرأة خلقت من طين - ابتداء خلقها من طين الأرض، كما ابتداء خلق آدم- يكرس ويدعم نموذجاً في التفكير.... ألا وهو أنه سينظر إلى قضايا المرأة على أنها مخلوق مستقل، وليست تابعة للرجل على اعتبار أنها خلقت من ضلعه.

ثالثاً: ليس في القرآن آية واحدة، ولا شطر آية يمكن أن يستند إليها من يرى أن حواء خلقت من ضلع آدم.

رابعاً: لو استعرضنا آيات التشريع التي وردت في القرآن الكريم لوجدنا أنها تخاطب كلا العنصرين: المرأة والرجل، فهما سواء في التكليف والثواب والعقاب.... فهو يخاطب المرأة، كما يخاطب الرجل، والمرأة مكلفة في باب العبادات والأخلاق والمعاملات والقيم مثل الرجل تماماً.. فالمنظومة التشريعية في القرآن تؤيد نموذج الاستقلال والمماثلة: رب واحد، وإنسان واحد، وتكوين واحد.

obeikandi.com

## الخطيئة الأولى

خَطَأً: حاد عن الصواب، وخطأ في دينه: سلك سبيل الخطئ عامداً، أو غير عامد.....

والخطيئة: الذنب عن عمد، والخطءُ: الذنب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَلْبَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٣١) [الإسراء: ٣١]، أى إثمًا، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٩٧) [يوسف: ٩٧]، أى آثمين.

والخطيئة الأولى: عقيدة مسيحية تشير إلى وضع الإنسان الآثم، الناتج من سقوط آدم عندما أكل هو وحواء من الشجرة التي حذر الله تعالى من الأكل منها، وتعتبر تقليدياً " الخطيئة الأولى "، وهى ما فعله الإنسانان الأوليان، وهو الوضع الساقط الذى لا يمكن - طبقاً للعقيدة المسيحية - أن يتخلص منه الإنسان إلا بنعمة الله.

وظلت فكرة ارتكاب هذه الخطيئة هى الفكرة المركزية على الدوام فى المسيحية، ولعل كثيراً من العقائد الأخرى تدور فى فلك هذه العقيدة، وتنتهى إليها. وقد أكد " إنجلز " أكثر من مرة، على أن الفكرة المركزية فى المسيحية كانت فكرة ارتكاب الخطيئة: " لقد مست المسيحية الجانب الذى يجب أن يجد الصدى فى عدد لا يحصى من الأفئدة، ووجد الوعى المسيحى الإجابة على التذمر والظلمات الناشئة فى مجرى الأزمنة الصعبة، وفى مجرى الفقر العام، المادى والأخلاقى فى ارتكاب الخطيئة. حقاً، هذا ما حدث، وما كان بالإمكان حدوثه بشكل مغاير، فالذنب فى فساد العالم ذلك، وكلكم مذنبون، فدخيلتكم ودخيلتكم الخاصة هى الفاسدة، فأين يوجد الإنسان الذى بمقدوره إنكار هذا

القول " ٤٩ .

والمراد من كفارة هذه الخطيئة في علم العقيدة المسيحية: هو قربان يسوع المسيح الذي يعود به الإنسان المذنب فوراً في كنف رحمة الله. وتقوم هذه العقيدة على عدة افتراضات:

الأول: أن الإنسان بعد عن رحمة الله بسبب الذنب الذي ارتكبه آدم.

الثاني: أن كلمة ( الابن ) إنما حلت في الجسد الإنساني، لكي يقرب الإنسان من رحمة الله من جديد. ٥٠

وينطوي هذا التعريف على دلالات عدة من الجوانب العقدية والتاريخية، التي لا يمكن بدون فهمها قبول هذه العقيدة:

أولاًها: أنه عندما خلق الله آدم وقر له كل أنواع الراحة، ولم يمنعه من شيء إلا من الأكل من الشجرة، وقد منحه قوة الإرادة في حرية كاملة، بحيث كان يمكنه التقيد بهذا النهي إذا شاء، كما كان يمكنه أن يخالف هذا الأمر إذا شاء.

ثانيها: إن آدم استعصم هذه الإرادة في غير موضعها، فارتكب ذنباً كبيراً بمخافة أمر الله والأكل من الشجرة.

وقد ترتب على شناعة هذه الخطيئة أثران:

الأول: أن آدم قد استحق جزاءً على هذه الخطيئة، ألا وهو "الموت الدائم" أو "العذاب الدائم" كما نص على ذلك في الكتاب المقدس: " وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ، وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلْ. لِأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ " . ٥١

الثاني: أن الله سلب آدم الحرية، وكان قد وهبه القدرة على فعل المعروف

٤٩ ( توكاريف ص ٥٠٤

٥٠ ( دائرة المعارف البريطانية ج ٢ ص ٦٥١ مادة: الكفارة.

٥١ ( سفر التكوين ٢: ١٧

والمنكر بإرادة واختيار منه، وبما أنه قد أخطأ فانتزعت منه هذه القدرة، يقول " أوغسطينوس": " لما أذنب الإنسان بقوته الإرادية الحرة، فبما أن الذنب قد تغلب عليه، فانتزعت منه حريته الإرادية، لأن المغلوب عبد من غلبه، كما يقضى به بطرس الرسول.... فلا يحظى بالحرية نحو عمل المعروف حتى يتحرر من المنكر، ويأخذ في العبودية للمعروف " <sup>٥٢</sup>. وبما أن اقتراف الخطيئة سبب انتزاع حرية الإرادة من آدم وحواء، ولم يعودا مختارين في صنع المعروف، رُكِّبَت الخطيئة مع طبيعتهما، وكانت الطبيعة لهما وعادة، وتسمى هذه الخطيئة في الاصطلاح: "الخطيئة الأصلية". وبما أن جميع البشر الذين وجدوا من بعد آدم وحواء، أو سيوجدون في المستقبل حتى يوم القيامة، إنما ولدوا من أصلهما، فقد انتقلت هذه الخطيئة إلى جميع أفراد البشر.

يقول القس " لبيب ميخائيل ": لقد كان آدم نائباً، ومُمَثِّلاً لجميع البشر، الذين كانوا في صلبه يوم تعدى وصية الله.... فبعد طرده من الجنة ولد نسلًا ساقطاً نظيره، في حالة الفساد الروحي والأدبي، وتحت حكم الموت والدينونة التي استحقها بعصيانه وتمرده على الله، وقد ورث هذا الجيل عن أبويه الأولين حالة العداوة لله، والتمرد على شعائره ووصاياهم.... وهذا ما يقرره " بولس " في كلماته: " من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم، وبالخطيئة الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع."

هذا هو مضمون فكرة الخطيئة حسب تصور النصارى، والذي بموجبه أصبح جميع البشر آثمين، وتمتد هذه الفكرة لتشمل الأطفال الصغار، يظهر ذلك في مقالة للقديس " أوغسطين " الذي يقرر: " بأن كل الأطفال غير المعمدين

محكومون بالحرق أبدياً في نار جهنم " ٥٣

تقوم العقيدة النصرانية على عدم مغفرة خطيئة آدم، مما استوجب صلب ابن الله فداءً للبشر، غير أن بعض الباحثين يدلل من خلال نصوص عند بعض طوائفهم على أن الله غفر لآدم هذه المعصية... " فقد وجدنا نصوصاً مكتوبة ( معتمدة وغير معتمدة ) تقول: إن خطيئة آدم قد غُفِرَتْ، مثل كون الحكمة قد أنقذت آدم من زلته ( الحكمة - العهد القديم )، وأن كلماته قد قبلت عند الله، وأنه لم يكن سبب موت الإنسان، وأن كل واحد منا آدم نفسه، كما لم يكن آدم مسئولاً إلا عن نفسه ( باروك الثنى والتلمود )، بل إن هناك إصحاحاً كاملاً في سفر حزقيال في التوراة ( إصحاح ١٨ ) لا يتكلم إلا عن رفض عقيدة توريث الخطيئة، لهذه الأسباب وغيرها رفضت طوائف قديمة من النصارى هذه العقيدة، مثل طائفة راهب القرن الرابع، الأيرلندي " بيلا جيوس " الذي تعرض للاضطهاد، إلا أن أتباعه كانوا يتزايون، خاصة في الكنائس الشرقية. وقد أعلن مجمع " اللد " عام ٤١٥ أنه مستقيم العقيدة، وقد بقى أثره إلى يومنا هذا في عقيدة سبق التعيين عند أتباع " كالفن " والإرادة الحرة عند " الميثوديست " ٥٤.

٥٣ ( راجع : [adyan-center.org](http://adyan-center.org) بقلم : هشام ابت الزاويت .

٥٤ ([www.Ebnmaryam.com](http://www.Ebnmaryam.com))

## دور حواء في ارتكاب

### الخطيئة

يضاف إلى أن الخطيئة هي الركيزة الأساسية في العقيدة المسيحية: أن حواء هي التي وقعت تحت غواية الشيطان، فأكلت من الشجرة، ثم حملت آدم على الأكل منها، أي أنها السبب في خطيئة آدم، يتضح ذلك من نص الكتاب المقدس:

" وَكَانَتْ الْحَيَّةُ أَجْمَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمَلَهَا الرَّبُّ الْإِلَهُ. فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ أَحَقًّا قَالَ اللَّهُ لَا تَأْكُلَا مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ مَنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ. وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللَّهُ لَا تَأْكُلَا مِنْهُ وَلَا تَمَسَّاهُ لِفَلَا تَمُوتَا. فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ لَنْ تَمُوتَا. بَلِ اللَّهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللَّهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلْأَكْلِ وَأَنَّهَا بَهْجَةٌ لِلْعُيُونِ وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا فَأَكَلَ<sup>٥٥</sup>..... ( وعندما وجه الله لآدم هذا السؤال ): هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْكُلَ مِنْهَا. قَالَ آدَمُ الْمَرْأَةَ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِيَ أَعْطَيْتَنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ....." <sup>٥٦</sup>

لكن الإسلام يقرر: أن الطبيعة الإنسانية كاملة نقية، وأن فطرة الإنسان طاهرة مبرأة من السوء والشر، وأن الخطيئة كسب، وعرض حادث، لا إرث وارث، فكم من أبوين صالحين أنجبا أولاداً فجرة، وكم من بيوت منحلة أنبتت علماء وقديسين، فالعابد قد ينجب الفاسد، ومن الفاسد يخرج العابد، وكم من

٥٥) تكوين ٣: ١-٦.

٥٦) تكوين ٣: ١١-١٢.

أخوين شقيقين تربيا في نفس البيئة، ولكنهما اختلفا في الطبع والأخلاق، قد يكونا ولدين، أحدهما عالم، والآخر عرييد، ومن أمثلة ذلك: إبراهيم الخليل عليه السلام كان والده كافراً، وهذا نوح ابنى، ولده في الدرك السفلى من النار.

نعم، يولد الإنسان من غير أن تكون الخطيئة مركوزة فيه، وهو قابل للترقى بالإحسان، وقابل للتدنى بالإساءة، يستطيع أن يسمو إلى أعلى عليين، كما يستطيع أن يهوى إلى أسفل سافلين، كل حسب عمله، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [الين: ٤ - ٦]

ففكرة تحمل بنى آدم خطيئة أبيهم لا تجد لها سنداً، لا من عقل، ولا من منطق، إذ لا يقبل العقل أن يقترف واحد خطيئة، من أى نوع كانت، ثم ينتقل إثم هذه الخطيئة إلى بنيه من بعده، وليس من المنطق أن يتحمل شخص ما اقترافه آخر بدون أن يكون له يد في ذلك الذنب، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَنْزَرُ وَنَزَّ أُخْرَىٰ ﴿١٦٤﴾﴾ [الاسم: ١٦٤]، ويقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨]

والمعروف والمشهور بين الناس أن حواء هي التي وقعت أولاً تحت غواية الشيطان، فأكلت من الشجرة، ثم أغوت هي آدم فأكل منها، ولذا شاع بين الناس أن المرأة هي أداة الشيطان، وبسببها خرج آدم من الجنة؛ إذ لو لم تختر قواها أمام الشيطان، ما نجح الشيطان في غواية آدم، وبالتالي ما خرج من الجنة، فشقاء بنى الإنسان كان بسببها.

هذا ما يشاع بين الناس، ولكن ينبغي أن نعلم أن القرآن الكريم ليس مصدر هذا التصور، بل سببه ما ذكر في التوراة - كما بينا سابقاً - من أن الشيطان أغوى حواء فأكلت من الشجرة، ثم أعطت آدم فأكل منها.

فالتوراة نسبت الخطيئة إلى حواء، أما القرآن الكريم فينسبها إليهما معاً، فهما متضامنان في تحمل المسؤولية، فقال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]

بل نصت آية " طه " على أن الشيطان وسوس إلى آدم فقط، يقول تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [١٢٠] فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لهُمَا سَوْءَ تَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى [١٢١] ﴿ [طه: ١٢٠ - ١٢١]، فنسب العصيان والغواية لآدم دون حواء.

ومما لاشك فيه أن تبرئة القرآن الكريم حواء على هذا النحو، يرفع عن المرأة لعنة لحقتها عبر القرون، ويرفع عنها سبة الضعف المطلق، والانهيار السريع أمام الغواية، ولا يخفى أثر هذا الاتجاه على وضعها في المجتمع.

obeikandi.com

## الجريمة الأولى

كان قَتْلُ ابن آدم أخاه أول جريمة قتل تقع في بداية التاريخ الإنساني، وكان الدافع إليها قُرْبُ المقتول من الله، وقبوله عنده، مع رفض قبول القاتل. وبعد أن وقعت الجريمة لم يدر القاتل كيفية التخلص من جثة أخيه، فبعث الله غراباً ليعلمه ذلك، لأن موت الجسد لم يكن له مثل قبل ذلك، فلم يمت أحد من البشر قبل هذه الحادثة. وكانت هذه الجريمة بمثابة اعتداء على المجتمع كله، لأن المقتول جزء منه، فالاعتداء على الجزء هو في نفس الوقت اعتداء على الكل.

صورت التوراة هذا الحادث على النحو التالي:

" وَعَرَفَ آدَمُ امْرَأَتَهُ فَحَبَلَتْ وَوَلَدَتْ قَايِينَ. وَقَالَتْ اقْتَنَيْتُ رَجُلًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ. ثُمَّ عَادَتْ فَوَلَدَتْ أَخَاهُ هَابِيلَ. وَكَانَ هَابِيلُ رَاعِيًا لِلْغَنَمِ وَكَانَ قَايِينُ عَامِلًا فِي الْأَرْضِ. وَحَدَّثَ مِنْ بَعْدِ أَيَّامٍ أَنَّ قَايِينَ قَدَّمَ مِنْ أَثْمَارِ الْأَرْضِ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ. وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضًا مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَمِنْ سَمَانِهَا. فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ. وَلَكِنْ إِلَى قَايِينَ وَقُرْبَانِهِ لَمْ يَنْظُرْ. فَاعْتَظَ قَايِينُ جَدًّا وَسَقَطَ وَجْهُهُ. فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ لِمَاذَا اغْتَظْتَ وَلِمَاذَا سَقَطَ وَجْهُكَ. إِنْ أَحْسَنْتَ أَلَّا رَفَعُ. وَإِنْ لَمْ تُحْسِنْ فَعِنْدَ الْبَابِ خَطِيئَةٌ رَابِضَةٌ وَإِلَيْكَ اسْتِيَاقُهَا وَأَنْتَ تَسُودُ عَلَيْهَا.

وَكَلَّمَ قَايِينُ هَابِيلَ أَخَاهُ. وَحَدَّثَ إِذْ كَانَا فِي الْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ قَامَ عَلَى هَابِيلَ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ. فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ أَيْنَ هَابِيلُ أَخُوكَ. فَقَالَ لَا أَعْلَمُ. أَحَارِسُ أَنَا لِأَخِي. فَقَالَ مَاذَا فَعَلْتَ. صَوْتُ دَمٍ أَخِيكَ صَارِحٌ إِلَيَّ مِنَ الْأَرْضِ. فَالآنَ مَلْعُونٌ أَنْتَ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي فَتَحْتَ فَاهَا لِتَقْبَلَ دَمَ أَخِيكَ مِنْ يَدِكَ. مَتَى عَمَلْتَ الْأَرْضَ لَاتَعُودَ تُعْطِيكَ قُوَّتَهَا. تَائِهًا وَهَارِبًا تَكُونُ فِي الْأَرْضِ. فَقَالَ قَايِينُ لِلرَّبِّ ذَنْبِي أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحْتَمَلَ. إِنَّكَ قَدْ طَرَدْتَنِي الْيَوْمَ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ وَمِنْ

وَجَهَكَ أَحْتَفَى وَأَكُونُ تَائِهًا وَهَارِبًا فِي الْأَرْضِ. فَيَكُونُ كُلُّ مَنْ وَجَدَنِي يَقْتُلَنِي. فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ لِدَلِكْ كُلُّ مَنْ قَتَلَ قَائِينَ فَسَبْعَةُ أَضْعَافٍ يُنْتَقَمُ مِنْهُ. وَجَعَلَ الرَّبُّ لِقَائِينَ عِلْمَةً لِكَيَّ لَا يَقْتُلُهُ كُلُّ مَنْ وَجَدَهُ. فَخَرَجَ قَائِينَ مِنْ لَدُنِ الرَّبِّ وَسَكَنَ فِي أَرْضِ نُودٍ شَرْقِيَّ عَدْنِ. " ٥٧

أما القرآن الكريم فصور هذا الحدث على النحو التالي، يقول الله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطَ إِلَهِي يَدَكَ لَيَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّلتِي أَعجزتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا أَوْ..... ﴿٣٢﴾﴾

[المائدة: ٢٧ - ٣٢]

فإذا قارنا بين نص التوراة ووحى الله في القرآن الكريم الذي أنزله على

رسوله ﷺ نجد ما يلي:

١. لم يذكر القرآن الكريم اسمي ابني آدم: لأن ذكر الأسماء في قصصه ليس من الأهداف التي جاء من أجلها الوحي: وهي العظة والاعتبار، فهي مقاصده

وأغراضه، وهى ما ترمى إليه من موضوعات دينية وقيم أخلاقية، فالأسماء ليست عنصراً أساسياً في قصص القرآن الكريم، إلا إذا كان في ذكرها هدف ديني أو أخلاقي.

٢. ولما لم يذكر القرآن الكريم اسميهما، فبالتالى لم يبين عمل كل منهما كالرعى والزراعة كما بينت ذلك التوراة، لأن هذا العنصر ليس له هدف في القصة، ألا وهو بيان ما في النفس الإنسانية من حسد الأخ على أخيه إذا وجد عنده نعمة حُرِمَ هو منها.

٣. مخاطبة الله لقابيل كما جاء في التوراة، هو أمر غير مألوف، لأن الله لم يخاطب أحداً ويحاوره، إلا إذا كان نبياً ورسولاً، فلم يكن هناك اتصال الله بأحد غيرهم إلا من ألهمه الله كأم موسى بإلقائه في اليم، وإلهام النحل بأن تتخذ من الجبال بيوتاً، ولا يندرج هذا الإلهام تحت مفهوم خطاب الله للإنسان الذى اصطفاه من خلقه ليبلغ رسالته، فكيف يخاطب الله إنساناً خطاباً مباشراً وهو غير نبي، بل هو عاصٍ، عصى أمر ربه فقتل أخاه. إن هذا التكريم - وهو خطاب الله - لا يصح أن يكون لمرتكب جريمة قتل، وأى جريمة ! إنما قتل أخيه، ابن أبيه.

٤. تكريم الله لقاتل أخيه، وهو قابيل، كما صرحت بذلك التوراة بأن بينت أن الله حماه ممن يريدون عقابه على ما ارتكبه في حق أخيه؛ إذ جعل له علامة ليحميه من أى إنسان يريد القصاص منه، وهذا ما يُعرَف الآن في بعض طبقات المجتمعات الإنسانية من حماية المجرم حتى لا يناله عقاب على ما اقترفته، وهو أمر مذموم ومرفوض في المجتمع الإنساني، فما بالك إذا كان حامى المجرم هو الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتتره عن هذا الإثم الذى نسبته التوراة إليه.

٥. كيف يسأل الله قاييل عن أخيه، وهو عليم بما في الكون كله، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور. إن تعبير التوراة بهذا الأسلوب يوحي بأن نصوصها ليست وحيًا، وإنما كتبه بشر، عبّر عن ملابسات الحدث بما يراه في مجتمعه، وما تعلمه من ثقافة عصره.

٦. انفرد القرآن الكريم بالحديث عن الغراب الذي بعثه الله ليعلم قاييل كيفية التخلص من جثة أخيه، وذلك أمر مهم، لأن من أهداف النصوص الدينية تعليم الإنسان ما يجب عليه عمله في مواجهة الظواهر التي لم يسبق له رؤيتها، وهي هنا موت إنسان ورؤية جثته هامدة، لأنه لم يسبق لأولاد آدم أن شاهدوا هذا، فهو أول حدث يرويه في حياتهم، فلم يكن دفن الموتى قد عُرفَ بعد. ولذلك كان لزاماً أن تعمه النصوص كيفية التعامل مع أجساد الموتى، وهذا أمر غفلت عنه التوراة فلم تذكره، وهو يعتبر نقصان في مجال توجيه الإنسان في حياته، وتعامله مع ما يستجد أمامه من أحداث.

٧. ذكر القرآن الكريم مبدأ من المبادئ التي لم تتوصل إليها المجتمعات البشرية إلا في العصر الحديث، ألا وهو اعتبار الاعتداء على فرد من أفراد الأمة بمثابة اعتداء على الأمة كلها، لأنه - أي المعتدى عليه - جزء من المجتمع، فما يحدث للجزء من آلام هو في الواقع يؤلم المجتمع كله، طبقاً للقاعدة المشهورة التي تصف المجرمين بأنهم خطر على المجتمع، أو التي تحدد قانونية الجريمة بأنها اعتداء على المجتمع، كما يرد ذلك وصف المجرم والجريمة في سردها للملابسات الجريمة أمام المحكمة.

نسيج المجتمع الديني - بل والمجتمع البشري بوجه عام - خيوطاً أسطورية حول هذه القصة، فأدخل فيها عناصر ليست موجودة في التوراة، ولم يشر إليها القرآن الكريم أدنى إشارة، فهي من وحي الاتجاه العام في المجتمع الإنساني، إذ

يولع غالبية أفراد أى مجتمع - مهما كانت درجة حضارته، وسُلم تقدمه - بسرد الأساطير حول أى قصة تصل إليه، سواء من مصدر ديني، أو من منبع أدبي، وإن كان الغالب الأعم أن الأساطير والخرافات تحاك حول النصوص الدينية، فمن خرافات هذه القصة ما يلي:

قال بعضهم: غشى آدم حواء بعد مهبطهما في الأرض بمائة سنة، فولدت له قابيل وتوأمته "إقليما" في بطن، ثم هايبيل وتوأمته "لبودا" في بطن واحد.

وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: إن آدم كان يغشى حواء في الجنة قبل أن تهبط إلى الأرض، فحملت له بقايل وتوأمته، فلم تجد عليهما وحمًا ولا نصبًا ولا طلقًا حين ولدتهما، ولم تر معهما دمًا لطهارة لبنه، فلما هبطا إلى الأرض واطمأننا بما تغشاها، فحملت بهابيل وتوأمته "لبودا"، فوجدت فيها الوحم والنصب والطلق والدم، حتى إذا شب أولاده زوّج غلام هذا البطن جارية البطن الآخر، وزوّج جارية هذا البطن غلام البطن الآخر، وكان الرجل منهم يتزوج أى أخواته شاء إلا توأمته التي ولدت معه، فإنها لا تحل له، وذلك أنه لم يكن نساء يومئذ إلا أخواتهم وأمهم حواء. فلما وُلِدَ قابيل وتوأمته "إقليما" في بطن واحد، وهايبيل وتوأمته "لبودا" في بطن واحد، وكان بينهما سنتان في قول الكلبي، وأدركوا أن أمر الله تعالى أن ينكح "لبودا" أخت هايبيل قابيل، وينكح هايبيل "إقليما" أخت قابيل، وكانت أخت قابيل من أجمل النساء وأحسنهن خلقًا، فذكر آدم ذلك لولده هايبيل فرضى، وسخط قابيل، وقال: هي أختي ولدت معي في بطن، وهي أحسن من أخت هايبيل، فأنا أحق بها، ونحن من أولاد الجنة، وهما من أولاد الأرض، فأنا أحق بأختي، فقال له أبوه: إنها لا تحل لك، فأبى أن يقبل منه ذلك، وقال: إن الله تعالى لم يأمره بذلك، وإنما هو من رأيه، فقال لهما آدم: قربًا قربانًا، فأيكما

يُقْبَلُ قربانه فهو أحقُّ بها ..... قالوا: وكانت القرابين حينئذ إذا قُبِلَتْ نزلت نار من السماء فأكلتها، وإذا لم تُقْبَلْ لم تنزل نار لأكلها وتأكلها السباع، فخرجوا ليقربا، وكان قاييل صاحب زرع، فقرب صُبْرَةَ من الطعام من أردأ زرع، وأضر في نفسه ما أبالي أُيْقَبَلْ مني أم لا، لا يتزوج أختي أبداً. وكان هايل راعياً، صاحب ماشية، فقرب كبشاً سمياً من خيار ما شيته ولبناً وزبداً، وأضر في نفسه الرضا بالله والتسليم لأمره. وقال إسماعيل بن رافع: إن هايل نتج له كبش في غنمه، فلما كبر لم يكن له مال أحب إليه منه، وكان يحمله على ظهره، فلما أُمِرَ بالقربان قَرَّبَهُ. قال: فوضعا قربانهما على الجبل، فترلت نار من السماء فأكلت الكبش والزُّبْدَ واللبن، ولم تأكل من قربان قاييل حبة، لأنه لم يكن بزكى القلب، وقُبِلَ قربان هايل لأنه كان زكى القلب، فما زال الكبش يرتع في الجنة حتى فُدىَ به ابن إبراهيم..... وقد غضب قاييل لما ردَّ الله قربانه، وظهر فيه الحسد والغى، وكان يضمهما قبل ذلك في نفسه إلى أن أتى آدم من مكة ليزور البيت..... قالوا: فلما غاب آدم أتى قاييل إلى هايل وهو في غنمه، فقال: لأقتلك؟ قال: ولم؟ قال: لأن الله قَبِلَ قربانك ولم يقبل قرباني، وتنكح أختي الحسنة وأنكح أختك الدميمة، فيتحدث الناس أنك خير مني وأفضل، ويفتخر ولدك على ولدي، فقال له هايل: وما ذنبي؟ ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢٧) لِيْنُ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿

قال عبد الله بن عمر: إن المقتول كان أشد، ولكن منعه التحرج أن يبسط إلى أخيه يده..... قال اسدي: لما قصد قاييل قتل هايل زاغ هايل في رعوس الجبال، ثم أتاه يوماً من الأيام وهو نائم، فرفع صخرة، فشحج بها رأسه، فمات. وقال ابن جريج: لم يدر قاييل كيف يقتل أخاه، فتمثل له إبليس، وأخذ طيراً

فوضع رأسه على حجر، ثم شدخه بحجر آخر، وكان لهايل يوم قُتِلَ عشرون سنة.... " ٥٨

واستمر القاصون في نسج المزيد من خيوط هذه الخرافة، فتحدثوا عن موضع الجريمة مع اختلاف آراء الرواة في تمديده، وحيرة قاييل في التخلص من الجثة وحملها على كتفه وتكالب الطير عليها مع تسرب التحلل إليها، ثم رووا شعراً على لسان كل من: وآدم، وحواء، وكذا إبليس، فمما رووه من شعر آدم، وهو أول شعر - كما يقولون - قيل:

تغيرت البلاد ومن عليها \* فوجه الأرض مغبرّ قبيح  
تغير كل ذى طعم ولون \* وقل بشاشة الوجه الصبيح  
وقاييل أذاق الموت هايل فواحزنا لقد فقد المليح  
ومالى لأجود بسكب دمع \* وهايل تضمنه الضريح  
وجاءت شُعلة ولها رنين \* لهايلها وقابلها يصيح  
لقتل ابن النبي بغير جرم \* فقلبي عند قتلته جريح  
وجاورنا لعين ليس يفنى \* عدو لا يموت فنستريح  
ونسبوا إلى حواء هذه الأبيات رداً عليه:

دع الشكوى فقد هلكا جميعاً \* بموت ليس بالثمن الريح  
وما يغنى البكاء عن البواكى \* إذا ما المرء غيَّب في الضريح  
فابك النفس وانزل عن هواها \* فلست مخلداً بعد الذبيح  
فأجابها إبليس - كما يروون - لعنه الله شامتا:  
تنحّ عن البلاد وساكنيها \* ففى الجنات ضاق بك الفسيح

وكنتَ بها وزوجك في رخاء \* وقلبك من أذى الدنيا مريح  
فما زالت مكابدتي ومكرى \* إلى أن فاتك الثمن الريح  
فلولا رحمة الجبار أضحي \* بكفك من جنان الخلد ريح

فهل عرف الرواة كل هذه التفاصيل في هذه القصة؟ وهل روته الأجيال عبر القرون والأحقاب كما كانت، على الرغم من أنهم حرفوا نصوص الوحي التي لم يمر على إنزالها فترة قصيرة جداً، إذا قيست بالفترة بين أحداث الجريمة الأولى وبين من رووها؟

إنه ولع الإنسان بنسج الأساطير والخرافات حول أحداث رُوِيَتْ له بإيجاز في النص المقدس، فزاد عليها تفصيلات لا أصل لها. فهذه الروايات الأسطورية من نسج الخيال، فكل عناصرها مطعون عليها بكل مقاييس الفحص والتدقيق: عقلاً، ومنطقاً، وواقعاً، وتاريخاً، ومنهجاً، سواء ارتكز على النصوص الدينية التي وصلت إلينا، أو سار في دهاليز التجارب البشرية على امتداد التاريخ الإنساني.

تسربت الروايات الأسطورية التي نسجت حول ابن آدم إلى التفسير، فنقلها المفسرون كما ذُكِرَتْ في كتب القصص والروايات دون تمحيص<sup>٥٩</sup>، إلا أن الرازي ذكر في تفسيره هذه الآيات أن الحسن والضحاك قالوا: " أن ابن آدم اللذين قريبا قرباناً ما كانا ابني آدم لصلبه، وإنما كانا رجلين من بني إسرائيل. قالوا: والدليل عليه قوله تعالى في آخر القصة: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢]، إذ من الظاهر أن صدور

٥٩ ( انظر ! الرازي ج ١١ ص ١٦١، والزنجشري ج ١ ص ٦١١-٦١٢، وابن كثير ج ٢ ص

هذا الذنب من أحد ابني آدم لا يصح أن يكون سبباً لإيجاب القصاص على بني إسرائيل، أما لما أقدم رجل من بني إسرائيل على مثل هذه المعصية، أمكن جعل ذلك سبباً لإيجاب القصاص عليهم زجراً لهم عن المعاودة إلى مثل هذا الذنب. وما يدل على ذلك أيضاً أن المقصود من هذه القصة بيان إصرار اليهود أبداً من قديم الدهر على التمرد والحسد، حتى بلغ بهم شدة الحسد إلى أن أحدهما لما قَبِلَ الله قربانه حسده الآخر وأقدم على قتله، ولاشك أنها رتبة عظيمة في الحسد، فإنه لما شاهد أن قربان صاحبه مقبول عند الله تعالى، فذلك مما يدعوه إلى حسن الاعتقاد فيه والمبالغة في تعظيمه، فلما أقدم على قتلِهِ، وَقَتَلَهُ مع هذه الحالة، دل ذلك على أنه كان قد بلغ في الحسد إلى أقصى الغايات، وإذا كان المراد من ذكر هذه القصة بيان أن الحسد دأب قديم في بني إسرائيل، وجب أن يقال: هذان الرجلان كان من بني إسرائيل.

إلا أن الرازي عقب على ذلك بقوله: "واعلم أن القول الأول هو الذي اختاره أكثر أصحاب الأخبار، وفي الآية أيضاً ما يدل عليه، لأن الآية تدل على أن القاتل جهل ما يصنع بالمقتول، حتى تعلم ذلك من عمل الغراب، ولو كان من بني إسرائيل لما خفى عليه هذا الأمر، وهو الحق..."<sup>٦٠</sup>

والحقيقة: أن الله أراد أن يعلم الإنسان أن حقد الأخ على أخيه يدفعه إلى إلحاق الأذى بمن تفوق عليه في ضروب الحياة المختلفة، قد يصل إلى حد قتله، وضرب له مثلاً لذلك بأن هاييل تفوق على قابيل في مجال القرب من الله ورضا الخالق عنه، فلم يتحمل قابيل سحق الخالق عليه، مع تميز أخيه عليه في هذه المكانة العليا عند الله، فدفعه هذا إلى قتله. ثم بين الله أن قتل فرد من المجتمع

يعتبر اعتداء على الناس جميعاً، لأن هذا الفرد جزء من المجتمع، والاعتداء على الجزء يؤلم الكل، فيجب على الإنسان أن يحافظ على مجتمعه حتى ينعم الجميع بالأمن والأمان، والطمأنينة والسلام. وهذان العنصران هما الهدف من رواية القصة في القرآن الكريم، وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]

ولما كانت الهداية هي هدف القرآن الكريم الأساسي، وليس التاريخ ولا القصص، أو سرد أحداث وقعت كما كانت، فلا مجال لاعتراض بعض علماء الأديان بأن القربان لم تعرفه البشرية إلا في عصر متأخر، فقد عبر القرآن الكريم عن تقرب الإنسان إلى الله بما يعرفه أهل مكة، وبما استقرت عليه الشرائع قبل الإسلام من وسائل التقرب إلى الله بتقديم القرابين أو الصدقات؛ فليس المراد من الإخبار بأن ابني آدم قدما القرابين التي استقرت عليها طقوس الأديان في العصور المتأخرة، بل هو تعبير عن وسيلة التقرب إلى الله بما يعرفه المخاطبون بالقرآن الكريم، وإن اختلفت صيغته وكنهه في زمن ابني آدم.

## الشیطان

تمثلت قوة الشر عند الإنسان البدائي في شكل أرواح شريرة، دخلت في صراع مع الأرواح الطيبة، فقد ظهرت هذه الأرواح في الأساطير الهندية في ثلاثة أقسام: أحدها: يشبه أرواح " الراكشا " البريئة التي تهيم على وجهها، ولا تؤذى أحداً إلا أن يتعرض لها. والثاني: يشبه العصاة المتمردين من الجن، ويعادى الإنسان ألد العدا، والقسم الثالث: يلوذ بالمقابر والصوامع، ويحالف الموت والخراب. ويقول من يزعمون رؤيتهم: إنهم مشوهون، بعضهم ذو رأسين، وبعضهم ذو ثلاثة أرجل، وفيهم من له عين واحدة في رأسه، ومنهم من له عدة أعين، وكلهم على خلاف البشر في التركيب.

ولا ينسب هؤلاء إلى " الراكشا " عمل من أعمال الإغراء والإغواء، ولكنهم قد يغتصبون النساء عنوة، ويتلصصون في الطرق المقفرة، ويستبيحون الأذى للكيد أو للعبث والدعاية، ورئيس هؤلاء " الراكشا " المسمى " رفانا " هو الذى اختطف الحسنة " سيتا " زوجة البطل " رام "، كما جاء في ملاحم " الراجيفيدا "، ثم حملها إلى جزيرة سرنديب، ولم يستطع زوجها أن يهتدى إليها ويخرجها من أسرها إلا بمعاونة القرد " هنومان ".

فالشیطان في صورة " الراكشا " هو الشر الذى أبغضه الآريون وصوروه لأبنائهم في الصورة التى تنفرهم منه، وتحذرهم من كيده، واتهم عندهم بما يتهم به كل شعب مهزوم يستأصله أعداؤه، ويدفعون به إلى أقاصى الأرض وزوايا المدن، ويستثيرونه أحياناً من فرط الظلم، فيثور، ويهملونه أحياناً فيهم على وجهه عاجزاً عن الأذى، قانعاً بالسلامة، أو متحفظاً للانتقام.<sup>٦١</sup>

وتمثل الصراع في بابل بين الأرض والنجوم، فربة الأرض تتحدى السماء، فتستعين بالطوائف على حكم أقطارها، وتخلق من جوفها الحيات والحيتان لتوطيد سلطاتها، وبرج بابل يقيمه المتمردون من البشر ليرتفعوا به إلى مناخزة الأرباب في سماواتها، وكل ثورة من ثورات الأساطير المزعومة، فإنما هي في مدلولها خروج من الأرض على إرادة لسماء، لا تلبث السماء أن تكبجه وتروضه على الطاعة الواجبة، وعلى التسليم لها بحقوق الصلاة والقربان.<sup>٦٢</sup>

وفي البقاع الفارسية وما حولها ظهرت الثنوية؛ فالكون يحكمه إلهان ( وهما: " أورمزد " و "أهرمان" أو الروح الطيب والروح الخبيث ): أحدهما: إله الملائ الأعلى، وهو رب الخير الذي خلق نوراً لا يحرق، وخلق الوردة والبلبل. والثاني: إله العالم الأسفل الذي تصدى لإله الملائ الأعلى، فحجب عنه خلائق الخير وشنها حرباً لاتزال حتى اليوم حامية الأوار. فمن عمل خيراً من الناس، فهم خدام الإله الأعلى، ومن عمل شراً منهم، فهم خدام الإله الأسفل. وسوف تحتدم الحرب كرهة أخرى، فيصعد الإله الأسفل إلى السماء السابعة، تخلق معه ألوف الألوف من جنده، وتطير بينه الحيات والثعابين، فيدور القتال سجلاً حتى ينهزم الإله الأسفل، ويلقى عصا الطاعة لإله السماء.<sup>٦٣</sup>

تعددت الآلهة في الفكر اليوناني، فـ " زيوس " كبير الأرباب، يرتكب من الآثام ما يجعله أشبه مايكون بالشیطان، فهو في جميع صورته: شهواني، نهم، أكول، شديد الطمع، لا يبالي شيئاً من الدنيا غير استبقاء سطوته وموارده خزينته، وتمتلي الأساطير اليونانية بأبناء لشجار بينه وبين قرينته " هيرا "، وكذلك شجاره مع الأرباب الأخرى؛ ففي إحدى المحاورات بينه وبين "

٦٢ ( المصدر السابق ص ٤٩ .

٦٣ ( قارن ! المصدر السابق ص ٥١ .

برومثيوس " - كما تمثلها " لوسيان الساموسى " - أديب الأساطير المشهور :

- أطلقنى يازيوس ! حسبى ما قاسيت .

- أطلقك، أطلقك أنت؟ كيف؟ إنك لأولى أن يزداد عليك ثقل الأغلال، وأن تنطبق عليك جبال القوقاز جميعاً، وأن ينهش من كبذك اثنا عشر عقاباً بدلاً من هذا العقاب الواحد، فإنك أنت الذى أغريت هذه المخلوقات البشرية اللعينة بأن تجترى على مناوأتنا، وأنت الذى اختلست سر النار، وأنت الذى سويت المرأة، وما بي حاجة أن أذكرك بما صنعت حين وضعت لى العظم على المائدة، وغطيته بالشحم تحدى عنى عن طعامى، فذق أنت جزاءك، فإنك به لجدير .

- وهل ترانى لم أصب من ذلك الجزاء ما هو حسبى؟ ألم ألصق هنا بالجبل سنين بعد سنين، يأكل من كبدى عقابك هذا اللعين الأتيم؟

- إنك لم تصب عشر معشار الجزاء الذى أنت به حقيق .

- تأمل ! إننى لا أطلب منك الإفراج عنى سماحة بغير عوض، وإنما أهب لك سرّاً من الأسرار الغالية التى تعينك .

- آه، إنها حيلة من حيل " برومثيوس " .

- حيلة من حيلى؟ ولأى غرض؟ إن جبل القفقاز موجود، وإنك لقادر على الرجعة بى إليه، إن كذبت عليك .

- قل لى أولاً، فى أى شيء تكون هذه النصيحة الغالية؟

- إذا أنباتك حقاً بشيء عن هذه النصيحة، ألا تعلم منها أيضاً أننى

أحسن النبوءة عن الغيب؟

- بكل يقين .

- إنك على موعد زيارة لـ " نيتس " .  
 - إلى هنا أصبت ، فماذا بعد هذا؟ قل ! إنني الآن أصغى إليك .  
 - لا تضاجعها يا " زيوس " ! فإن بنت " نيريس " لا تلبث أن تحمل  
 منك حتى تلد طفلاً يبتليك . بما تبتليني به الآن .  
 - تعنى أنني أفقد عرشي ؟  
 - أعيدك من القضاء ، وإنما أنبتك . بما سيكون من وراء هذا اللقاء .  
 - إذن وداعاً يا " نيتس " ، وأنت يا " برميوس " سيأتيك " هيفسيتس  
 " بالفرج القريب .

من هذا يتبين أن الإنسان اعتقد منذ حلقه بوجود أرواح خبيثة وأخرى طيبة ، فنسج حولها الأساطير واخرافات ، كما بحث عن يقيه شر الخبيثة ، ويمكنه من القربى للطيبة فينال جزاءها وثوابها ، فلجأ إلى الساحر ليحصنه من شرور الخبيثة ، واعتمد على طقوس الكاهن منفذاً أرامره بتقديم القرابين وتلاوة التعاويذ كي ترضى عنه الأرواح الطيبة .... ثم خط الإنسان خطوة ، فصور الشر بحية تزحف على التراب وتندس في اجحور كيداً وخديعة ، وتمكناً من الدس والأذى فيما توهمه ، ولم يكن في وسعه أن يتوهم شيئاً سواه ؛ ولهذا بقيت صورة الحية مقترنة بقوة الشر ، حقيقة أو رمزاً ، إلى أحدث العصور .

لم يذكر اسم الشيطان - كقوة شريرة - في كتب بني إسرائيل قبل عصر المنفى إلى أرض بابل ( ٥٨٦ ق.م . ) . بل جاء ذكره وصفاً - لا إسماً - بمعنى الخصم في القضية ، أو المقاوم ، كما أطلق مرة على الملك الذي تصدى لـ " بلعام " في طريقه ، لأنه كان بمعنى المعترض ، أو الضد ، أو الخصم المقاوم . ولم يذكر علماً إلا في سفر أيوب حيث ورد فيه : " وقف الشيطان ضد إسرائيل " .  
 تمثل الشيطان في قصة أيوب في صورة الواشى ، الموغر للصدر ، ولم يكن

منعزلاً عن الملائكة، بل دخل معهم إلى الحضرة الإلهية... وجاء في سياق القصة على النحو التالي: " وَكَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَنَّهُ جَاءَ بَنُو اللَّهِ لِيَمْتَلُوا أَمَامَ الرَّبِّ وَجَاءَ الشَّيْطَانُ أَيْضاً فِي وَسْطِهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ مَنْ أَيْنَ جِئْتَ. فَأَجَابَ الشَّيْطَانُ الرَّبَّ وَقَالَ مِنَ الْجَوْلَانِ فِي الْأَرْضِ وَمَنْ التَّمَشَّى فِيهَا. فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ هَلْ جَعَلْتَ قَلْبَكَ عَلَى عَبْدِي أَيُّوبَ. لَأَنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ فِي الْأَرْضِ. رَجُلٌ كَامِلٌ وَمُسْتَقِيمٌ يَتَّقِي اللَّهَ وَيَحِيدُ عَنِ الشَّرِّ. فَأَجَابَ الشَّيْطَانُ الرَّبَّ وَقَالَ هَلْ مَجَاناً يَتَّقِي أَيُّوبُ اللَّهَ. أَلَيْسَ أَنَّكَ سَبَّحْتَ حَوْلَهُ وَحَوْلَ بَيْتِهِ وَحَوْلَ كُلِّ مَالِهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ. بَارَكْتَ أَعْمَالَ يَدَيْهِ فَانْتَشَرَتْ مَوَاشِيهِ فِي الْأَرْضِ. وَلَكِنْ ابْسُطْ يَدَكَ الْآنَ وَمَسُّ كُلِّ مَالِهِ فَإِنَّهُ فِي وَجْهِكَ يُجَدِّفُ عَلَيْكَ. فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ هُوَ ذَا كُلِّ مَالِهِ فِي يَدِكَ. وَ إِنَّمَا إِلَيْهِ لَا تَمُدُّ يَدَكَ. ثُمَّ خَرَجَ الشَّيْطَانُ مِنْ أَمَامِ الرَّبِّ....." ٦٤

وفي المسيحية ذُكِرَ الشيطان بأسماء متعددة في الإنجيل على لسان السيد المسيح؛ فذُكِرَ باسم الشيطان، واسم "روح الضعف"، واسم "الشرير"، واسم "رئيس هذا العالم"، واسم "بعلزبون". وقيل عن "بعلزبون" بلسان الفريسيين: إنه رئيس الشياطين.

وتذكر الأناجيل أخبار المجانين الذين شفاهم السيد المسيح، فتقول عنهم تارة: إنهم صرعى الشياطين. وترد كلمة الشيطان في الترجمة اليونانية مقابلة لكلمة العفريت والروح المتسلط "Disbolo"، أو مقابلة للكلمة التي تطلق على العفريت والروح المتسلط "Demon"، سواء كان شريراً أو غير شرير. ومن هنا أطلق على الشيطان اسم: "إبليس"، ونسب - أي الإنجيل - له سلطاناً

على العالم، يتضح هذا من قصة التجارب التي امتحن بها السيد المسيح في البرية. وينفرد إنجيل يوحنا بكلام منسوب إلى السيد المسيح يصف فيه إبليس بأنه رئيس هذا العالم، وفي إنجيل لوقا وردت الكلمة التي شبهت لقراء الأناجيل اسم الشيطان باسم "لوسيفر" حامل النور كما كان يدعى بعد عصر الأناجيل بعدة قرون، ففي هذا الإنجيل يقول المسيح للتلاميذ السبعين الذين أرسلهم للبطارة من قبله: "...رَأَيْتُ الشَّيْطَانَ سَاقِطًا مِثْلَ الْبُرْقِ مِنَ السَّمَاءِ." <sup>٦٥</sup>

أما غاية ما وصف به إبليس من السطوة فهو قول بولس الرسول عنه في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس: "...وَلَكِنْ إِنْ كَانَ إِنْجِيلُنَا مَكْتُومًا فَإِنَّمَا هُوَ مَكْتُومٌ فِي الْهَالِكِينَ الَّذِينَ فِيهِمْ إِلَهُ هَذَا الدَّهْرِ ( يقصد إبليس ) قَدْ أَعْمَى أَذْهَانَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ...." <sup>٦٦</sup>

استقر في أذهان الدارسين للأدب في كل لغات العالم، وفي مختلف العصور أن إنتاج الأديب، أو ما يسطره الفلاسفة والمفكرون هو حصيلة ما يتلقاه من مجتمعه من أفكار، وتقاليد، وعادات. فما يكتبه نابع مما يتلقاه من أفكار من سبقه، ومُصَوَّرَ لمعتقدات مجتمعه الذي نشأ فيه، وتربى على ثقافته. فمن يريد معرفة معالم التيارات الثقافية والمعتقدات الدينية، والمسلمات الفكرية لمجتمع ما في أي عصر من العصور، فعليه أن يدرس ما كُتِبَ في ذلك العصر، وما سطره علماءه، وفلاسفته، ومفكروه. فإذا شذ عن هذه القاعدة مفكر، أو فيلسوف، فأتى بأفكار لم تكن في عصره، فلا يخرج ذلك عن القاعدة؛ فهو إبداع في ناحية ما، أو ابتكار لفكرة لم يتلقاها من عصره، ولم تنبع من مخزونه الثقافي الذي تلقاه من محيطه الفكري، فهو إبداع لا يتعدى ومضة مفردة في جوانب

(٦٥) لوقا: ١٠: ١٨.

(٦٦) ١٣: ٣-٤.

الفكر، لا تصل إلى أن تكون نوعاً متكاملًا، أو تصوراً شاملاً، بعيد كل البعد عن المحيط الذى يعيش فيه؛ فالتطور فى الفكر يقوم على مثل هذه الأفكار المفردة، والتقدم فى مجال التكنولوجيا يزدهر من تراكم هذه الإبداعات الإنسانية التى يُضَمُّ بعضها إلى بعض، فتُحدِثُ طفرة فى مجالها، أو تؤدى إلى اكتشاف لم يكن معلوماً من قبل، فلم يحدث أن أتى مفكر بنظريات متكاملة، لم يعرفها عصره، أو بمعلومات تغير الصورة الذهنية لقضايا سلمت بها المجتمعات البشرية، ورسخت فى أذهان الناس حتى أصبحت من الأمور المقدسة التى لا يختلف عليها اثنان، إلا أن يكون نبياً يوحى إليه من لدن عليم حكيم. ومن الأمثلة على ذلك ما تناقلته البشرية حول الصراع بين الخير والشر، وتصوراتها له على أنه صراع بين إلهين - إله الخير وإله الشر - أو صدام بين قوى الأرض وقوى السماء، أو نزاع بين أرواح طيبة وأخرى خبيثة، كما بين ذلك سابقاً، فقد جاء محمد ﷺ بالقول الفصل فى هذا الموضوع، مبتعداً عن كل تلك الأقاويل التى يقف العقل حائراً أمامها بين تصديق قلبى لها، ورفض عقلى لتصورها، جاء القرآن الكريم بحديث عن هذا الصراع يوائم بين العقل والقلب، ذلك أنه صاغ الموضوع بأسلوب أدبى يرضى جميع المستويات الثقافية فى كل المجتمعات الإنسانية، فلا تنفر منه العواطف الدينية، ولا تنكره عقول الفلاسفة، ومنطق المفكرين.

## الشیطان فی الفكر

### الإسلامی

اسم " الشیطان " بالألف واللام هو أشهر الأسماء؛ لأنه ورد فی كتب الديانات الثلاث، ودخل فی تعبيرات اللغات الأوربية المتداولة بلفظه المنقول عن اللغات السامية، فيتحدث الغربيون اليوم عن الفكرة الشیطانية أو عن العمل الشیطاني، ويفهمون من عباراتهم معنى لا يلتبس على القائل، ولا على المتكلم. ومعنى الصفة الشیطانية عندهم مرادف للصفة الجهنمية التي تنطوي على الخبث والبراعة، وحب الأذى، والتمتع بالإيذاء، كأنه منفس لطبيعة صاحبها يفرج عنه، ويسره أن يلمح آثاره وهو مستتر وراءه.

والرأى الغالب أن كلمة " الشیطان " هذه عبرية، بمعنى الضد أو العدو، ومن أسباب الظن باستعارتها من اللغة العبرية أنها لغة اليهود، وأن ديانة موسى عليه السلام سابقة للمسيحية والإسلام. ولكنه ظن يصدق في حالة واحدة، وهي أن يكون اليهود أصلاء في الكلام عن الشیطان، لم يسبقهم أحد من لمشاركة إليه، إلا أنها حالة لم تثبت، وقد يكون الثابت خلافها ونقيضها، فإن اليهود وصفوا الشیطان بعد هجرتهم إلى بابل، وليست طريق بابل موصدة دون الأمم السامية غير اليهود.

والأرجح عندنا أن الكلمة أصيلة في اللغة العربية، قديمة فيها، لا يبعد أن تكون أقدم من نظائرها في اللغة البابلية، لأن اللغة العربية قد اشتملت على كل جذر يمكن أن يتفرع منه لفظ الشیطان على أى احتمال، وعلى كل تقدير.

ففيها مادة: شط، وشاط، وشوط، وشطن، وفي هذه المواد معاني البعد، والضلال، والتلهب، والاحتراق، وهي تستوعب أصول المعاني التي تفهم من

كلمة الشيطان جميعها.

فالشطط من الغلو الذى يدخل فى أخص عناصر " الشيطنة " ، والشط بمعنى الجانب المقابل، قد تلحظ فى مقابلة الخير بالشر من جانب الشيطان.

وشاط بمعنى احترق وتلف، وأشاطه بمعنى أهلكه وأتلفه، وانطلق شوطاً، أى ابتعد واندفع فى مجراه، وشطن أى ابتعد، فهو شيطان على صيغة فيعال.

وقد كان العرب يسمون الثعبان الكبير بالشيطان، ويقال فى بعض التفسيرات: إن هذا المعنى هو المقصود من قوله تعالى: ﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسٌ

الشَّيْطَانِ ﴾ [الصافات: ٦٥]

وذكر الشراح اليهود المتأخرون أن الشيطان تمثل لآدم فى صورة الحية حين أغراه بأكل الثمرة المحرمة، ولم تنقطع العلاقة قط بين الحية والشيطان، ويؤخذ من سفر أيوب عليه السلام - وهو عربى باتفاق المؤرخين - أن الشيطان كان معروفاً بين العرب من ذلك العهد الذى كان سابقاً لعهد خروج بنى إسرائيل من مصر. ويؤخذ من تاريخ الأدب العربى فى الجاهلية أن العرب قد عرفوا الشيطان فى أدواره الفنية والأدبية مع السحرة والشعراء، فليس هو مجرد اسم معرب نقلوه من لغة أخرى، ولم يزدوا على وضعه فى موضعه من المأثورات العربية.

وأشهر أسماء الشيطان الأكبر فى اللغة العربية هو اسم " إبليس " الذى يختلف اللغويون فى أصله، كما يختلفون فى نسبة كلمة شيطان إلى إحدى اللغات السامية.

والمتكلم العربى يفهم من وصف إنسان من الناس بأنه " إبليس " كل ما يريده القائل من هذه الصفة، فهى دالة فى كلام العامة والخاصة على الدس، والفتنة، والدهاء، والسعى بالفساد. ولم تحمل كلمة واحدة من دلالتها اللغوية أكثر مما

حملته هذه الكلمة مستعاراً من صفات إبليس في العقيدة الإسلامية. <sup>٦٧</sup>

ورد اسم إبليس في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة، تسع منها جاء في سياق الحديث عن عدم سجوده لآدم، وواحدة مضافاً إليه جنوده مع الغاوين الذين سيلقون في جهنم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَكَبِّبُوا فِيهَا لَهُمُ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الشعراء: ٩٤ - ٩٥]، أي ألقى إبليس في جهنم هو وأتباعه من العصاة. قال مجاهد: يعني فَذُهِبُوا فِيهَا، والمراد: أنه ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعواهم إلى الشرك، أي ألقوا فيها عن آخرهم.

والأخرى في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سبا: ٢٠]، قال ابن كثير: لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى، وخلف الرشد واحدى، فقال: ﴿... أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْسِنَكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال: ﴿ثُمَّ لَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧]، والآيات في هذا كثيرة، وقال الحسن البصرى: لما أهبط الله آدم عليه السلام من الجنة ومعه حواء، هبط إبليس فرحاً بما أصاب منهما، وقال: إذ أصبت من الأبوين ما أصبت، فالذرية أضعف وأضعف، وكان ذلك ظناً من إبليس، فأنزل الله عليك: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سبا: ٢٠]، فقال عند ذلك إبليس: لا أفارق ابن آدم مادام فيه الروح، أعدته، وأمنيه، وأخذعه. فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي، لا أحجب عنه التوبة، ما لم يفرغر بالموت، ولا يدعوني إلا أحبته، ولا يسألني إلا أعطيته، ولا يستغفرني إلا غفرت له، رواه ابن

أبي حاتم " ٦٨ .

وقد تعددت الآيات في وصف مشهد عصيان إبليس لله بامتناعه عن السجود  
لآدم، وغضب الله عليه، وإمهال عقابه إلى يوم الدين، كما بينت تلك الآيات  
بدء عمل إبليس ضد آدم بغوايته، ثم عفو الله عن آدم وقبول توبته خلافاً  
للمسيحية التي تراها أن الله لم يغفر هذه الخطيئة لآدم، وظلت معلقة في رقبة بنيه  
حتى بعث عيسى عليه السلام فصُلب - كما يزعمون - تكفيراً لهذه الخطيئة، يقول  
تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا  
أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ  
لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى  
الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ  
لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّادَمُ أَنْبِئَهُمْ  
بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا  
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَتَّادَمُ  
أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ  
فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا  
أهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَلَقِيَ آدَمُ  
مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا  
يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾

[البقرة: ٣٠ - ٣٨]

وقد تساءل المعقبون على قصة آدم من العلماء غير المسلمين عن معنى الشجرة التي أكل منها آدم في الدين الإسلامي، والجواب على هذا التساؤل أنها ترمز إلى التكليف بجميع لوازمه ونتائجه، فليس الفرق بين آدم قبل الأكل منها وبعد الأكل منها، إلا الفرق بين الحياة في دعة وبراءة، والحياة " المكلفة " التي لا تخلو من المشقة والشقاق والامتحان بالفتنة، ومعالجة النقائص والعيوب، فكلما تكررت القصة في الآيات القرآنية كان في تكرارها تثبيت لهذا المعنى على وجه من وجوهه المتعددة، ويبدو ذلك جلياً من المقابلة بين ما تقدم وما جاء عن هذه القصة في سورة الأعراف، وذلك حيث يذكر التصوير بعد الخلق، أو إعطاء الصور بعد إعطاء الوجود، ثم تمضي القصة على ما يلي:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَنبَهُهُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَسْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَتَادَمُّ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِيهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَذَلَّلَهُمَا يَفْرِورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالََا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ

تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ  
 وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ  
 وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَبْنِي ۚ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُؤَرِّى سَوْءَ يَتَكُم وَرِيشًا وَلِيَاسَ  
 الْفَقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَبْنِي ۚ آدَمَ لَا  
 يَقْنِنُكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ آبَائَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يُنَزِعُ عَنْهُمَا لِيَاسُهُمَا لِيُرِيَهُمَا  
 سَوْءَ يَتِيَهُمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ  
 لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴿ [الأعراف: ١١ - ٢٧]

ومن تمام التوكيد لحدود التكليف في هذه القصة أن خطاب آدم به لا يغني عن خطاب بنيه وأعقابه، فهو مكلف، وهم مكلفون، وكلفته لا تلزمهم، وتوتبتة لا تغني عنهم، ومولدهم منه يخرجهم على سنة الأحياء المولودين، حيث يحيون، وحيث يكدهون، وحيث يموتون.<sup>٦٩</sup>

جاء في الرازي ما يلي: "اختلفوا في أنه كيف تمكن إبليس من وسوسة آدم الكليل مع أن إبليس كان خارج الجنة وآدم كان في الجنة، وذكروا فيه وجوهاً: أحدها قول القصاص، وهو الذي روه عن وهب بن منبه اليماني، والسدي عن ابن عباس رضی الله عنهما، وغيره: أنه لما أراد إبليس أن يدخل الجنة منعتة الخزنة، فأتى الحية، وهي دابة لها أربع قوائم كأنها البختية، وهي كأحسن الدواب، بعد ما عرض نفسه على سائر الحيوانات، فما قبله واحد منها، فابتلعت الحية، وأدخلته الحية خفية من الخزنة، فلما دخلت الحية الجنة خرج إبليس من فمها، واشتغل بالوسوسة، فلا جرم لعنت الحية، وسقطت قوائمها، وصارت تمشي على بطنها، وجعل رزقها في التراب، وعدواً لبني آدم.

واعلم أن هذا وأمثاله مما يجب ألا يلتفت إليه، لأن إبليس لو قدر على الدخول في فم الحية، فلمَ لم يقدر على أن يجعل نفسه حية، ثم يدخل الجنة، ولأنه لما فعل ذلك بالحية، فلمَ عوقبت الحية مع أنها ليست بعاقلة ولا مكلفة؟  
وثانيها: أن إبليس دخل الجنة في صورة دابة، وهذا القول أقل فساداً من الأول.

وثالثها: قال بعض أهل الأصول: إن آدم وحواء عليهما السلام لعلهما كانا يخرجان إلى باب الجنة، وإبليس كان يقرب من الباب ويوسوس لهما.  
ورابعها: وهو قول الحسن: أن إبليس كان في الأرض، وأوصل الوسوسة إليهما في الجنة. قال بعضهم: هذا بعيد؛ لأن الوسوسة كلام خفى، والكلام الخفى لا يمكن إيصاله من الأرض إلى السماء.

واختلفوا من وجه آخر، وهو أن إبليس هل باشر خطابهما؟ أو يقال: إنه أوصل الوسوسة إليهما على لسان بعض أتباعهما.<sup>٧٠</sup>

إن هذه الروايات تستهوي العامة، ويميل إلى تصديقها كثير من علماء الدراسات الدينية، بل يكررونها في أبحاثهم، لكن العقل الواعي يقف عندما ذكره القرآن الكريم في العديد من الآيات ليحاول استخلاص الأهداف من ذكر القرآن لها، وقد حاولت ذلك، فتوصلت إلى ما يلي:

١. أنه ينبغي على الإنسان أن يدرك تحديد المباح له، فلا يظن أن ما في الوجود - إذا كان الله قد سخر له - ملكاً له، يستطيع أن يتصرف فيه بحرية، بل لا بد أن يعرف أن حرته لها حدود، وما أبيض له الاستمتاع به له حدود أيضاً، وبذلك يتربى على التصرف فيما له،

والابتعاد عما ليس له حق فيه، فإذا أدرك ذلك سارت الأمور في المجتمع سيراً طبيعياً، إذ يلتزم بما حدد له، فلا يتعداه، ولا يتجاوزه، وبذلك يضمن لنفسه هو أيضاً حقوقه المشروعة، لأن الآخرين سوف لا يسلبونها منه، وذلك إذا راعى كل إنسان ماله وما عليه.

٢. أن هناك دوافع تدفع الإنسان إلى التعدي على ما ليس له، فيرتكب إثماً في حق نفسه وإزاء الآخرين، وهى، وإن كانت في نفس الإنسان، إلا أن ما يحركها عوامل خارجية، أبرزتها قصة آدم في وسوسة الشيطان له ولزوجته، ولا يكون لهذا تأثير، إلا إذا صورت للإنسان أن ما يتمناه سوف يتحقق، لو أقدم على هذا العمل الذى تزينه له.

فانحراف الإنسان ينبع من ثلاثة أشياء: رغبة كامنة في النفس، وتأثير خارجي، وأمل يريد تحقيقه، ولا يستقيم الإنسان في سلوكه إلا إذا هذب هذه الرغبات الكامنة في النفس، وأدرك أنه لا ينبغي أن ينساق وراء كل دعوة تدعوه إلى سلوك طريق ما، إلا إذا كان ذلك في حدود ما رسم له، وأيقن أن ليس كل ما يتمناه المرء قابلاً للتحقيق، فيحصر أمانيه في حدود الجائز، ولا يسبح في مجال الخيال، الذى لا يجنى الإنسان من ورائه إلا الندم والحسرة على ما ارتكب من آثام في سبيل الحصول على ما يتنافى مع طبيعته وتكوينه البشرى.

٣. أنه يجب على الإنسان في هذه الحياة أن يحترس من الشيطان وأعدائه، لأنهم أعداؤه، يريدون به الشر، ويسعون في غوايته حتى يخسر الدنيا والآخرة، كما ينبغي عليه أن يتعد عن كل الأشرار، لأن لا يجنى من القرب منهم إلا الخسران والهلاك، وصدق رسول الله ﷺ حين يقول: " مثل المجلس الصالح والمجلس السوء، كمثل صاحب

المسك وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك، إما أن تشتريه، أو تجد ربحه، وكير الحداد: يحرق بيتك أو ثوبك، أو تجد ربحاً خبيثة " ٧١.

وعليه، فلم يكن القصد من ورود قصة آدم في القرآن الكريم سرداً تاريخياً، وإنما جاءت للعظة والاعتبار، وللتعليم والهداية، فحوار الله مع الملائكة حول خلقه، يعلمنا التسليم لما يريد، لأننا لا نعلم سر إرادته. وأمره الملائكة بالسجود لآدم، يوضح لنا مكانة آدم في هذا الكون، وأن هذه المترلة لم ينلها إلا لأن الله نفخ فيه من روحه. وعقاب الله إبليس يؤكد لنا أن من يرتكب إثماً لا بد من عقابه، مهما كانت مترلته ودرجته.

وتحريم الله على آدم الأكل من شجرة معينة تعليم لنا بأنه ليس كل شيء مباحاً، بل هناك حدود لهذه الإباحة، وهو الأمر الذي تسير عليه سنن الحياة في المجتمعات البشرية.

ووقوع آدم في الخطأ، وإبلاغه بأن الشيطان عدو له، إشارة إلى ما ينبغي على الإنسان عمله من الحرص، حتى لا يرتكب المعاصي.

هذه هي الأهداف التي من أجلها جاء الحديث عن آدم في القرآن الكريم، وماعداها من تاريخ حياته على الأرض، فلم يذكر القرآن الكريم شيئاً مما حدث له، لأنها أمور عادية ليس فيها ما يلفت النظر، فلو تحدث عنها لخرج عن كونه كتاب هداية، وتحول إلى كتاب تاريخ، تسجل فيه أحداث السابقين بعثها وسمينها، وهو ليس كذلك، لأنه لم يتزل على محمد ﷺ ليعلمه التاريخ، ولكن

ليبلغه ما يساعد الناس على اتباع طريق تكون فيها سعادتهم في الدنيا، وفلاحهم في الآخرة.

وردت كلمة: " الشيطان " في ثمان وستين آية، في مقابل إحدى عشرة آية وردت فيها كلمة: " إبليس "، تسع منها جاءت في سياق الحديث عن عدم سجود آدم، وواحدة مضافة إلى جنوده بأهم سيلقون في جهنم مع الغاوين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَكَبَّوْا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۗ وَخَنُودٌ يُبْلِسُ أَجْمَعُونَ ۗ ﴾ [ الشعراء: ٩٤ - ٩٥ ]، والأخرى في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۗ ﴾ [س: ٢٠]، كذلك لم تنسب غواية إبليس لآدم إلا في آيتين اثنتين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّن حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۗ ﴾ [٢٨] فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۗ ﴾ [٢٩] فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أجمعُونَ ﴿ ٣٠ ﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿ ٣١ ﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿ ٣٢ ﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِن صَلْصَلٍ مِّن حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿ ٣٣ ﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿ ٣٤ ﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿ ٣٥ ﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿ ٣٦ ﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿ ٣٧ ﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿ ٣٨ ﴾ قَالَ رَبِّ مَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجمعين ﴿ ٣٩ ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿ ٤٠ ﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿ ٤١ ﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿ ٤٢ ﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجمعين ﴿ ٤٣ ﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿ ٤٤ ﴾ [ الحجر: ٢٨ - ٤٤ ] وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿ ٧١ ﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿ ٧٢ ﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجمعُونَ ﴿ ٧٣ ﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿ ٧٤ ﴾ قَالَ

يَتَابِلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ  
 أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْنَاهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرَجْنَا مِنْهَا فِرْعَانَ رَجِيمًا ﴿٧٧﴾  
 وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ  
 مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ  
 ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴿٨٣﴾ [ص: ٧١ - ٨٢]

وتربصه لبني آدم في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ  
 الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَمَا آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ  
 أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ [الأعراف:

١٤ - ١٧] بل إنه عقب هذه الآيات نسبت الوسوسة للشيطان، ولم تسب  
 لإبليس، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ  
 عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰ رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ  
 تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا  
 ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاءُ تَيْهَمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَفَادَهُمَا  
 رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ [

الأعراف: ٢٠ - ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ  
 فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ هَذَا الَّذِي  
 كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾  
 قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُ  
 مَنْ أَسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي  
 الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعْدهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ [الإسراء: ٦١ -  
 ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا  
 إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ

الْجَنَّةِ فَتَشَقِّقَ ﴿١٣٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١٣٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا  
تَصْبَحَى ﴿١٣٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ  
الْخَلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٤٠﴾ [طه: ١١٦ - ١٢٠]

ومن الجدير بالذكر أن كلمة: " إبليس " انفردت - تقريباً - بورودها عند الحديث عن خلق آدم، وأمر الله الملائكة بالسجود له، وامتناع إبليس عن إطاعة هذا الأمر، أما غواية بني آدم ودفعهم إلى معصية الله، وارتكابهم الفواحش والآثام، فنسبت كلها - إلا ما ورد في سورتي الحجر وص - إلى الشيطان، حتى ما ورد في هاتين السورتين، فهما بمثابة تهديد من إبليس بأنه سينتقم من آدم وذريته، وذلك بغوايتهم، وحثهم على ارتكاب المعاصي والآثام.  
فما معنى هذا؟

ذكرت كلمة: " الشيطان " في الأديان كلها، من لدن بدء الخليقة حتى ظهور الإسلام، مقرونة بالأعمال السفلية، والغواية، وبأن هذا الكائن، الذي أطلق عليه هذا الاسم في جميع اللغات تقريباً، مصدر الانحراف عن طريق الله - أو عن طريق المعبود، أيًا كان وضعه في الأديان الأرضية والبدائية -، وسبب كفران الإنسان نعمة الخالق عليه. ولم يخل إنسان - مهما بلغ ورعه وتقواه - من الوقوع - ولو للحظة - في حباته، وإطاعته فيما يوسوس له به.... حتى ذهب بعض الفلاسفة إلى أن الشيطان ليس كائناً منفصلاً عن الإنسان، وإنما هو بمثابة غريزة من غرائزه؛ فطبيعته مركبة من جانبين: خير وشر، فإن تغلب عنصر الخير على الشر كان إنساناً طيباً مؤمناً، وإن تغلب العنصر الثاني صار شريراً، فكل إنسان شيطانه بداخله وليس كائناً خارجاً عنه، قد يظهر ويبدو، يؤثر في سلوك الإنسان، بعوامل البيئة: من تعليم وتربية وظروف عامة تحيط به.  
وقد مال بعض المسلمين إلى هذا الرأي، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى:

﴿ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]، فالذي يأمر  
 الإنسان بالانحراف، وارتكاب أعمال ضد نفسه، وضد مجتمعه، إنما هي تلك  
 النفس المستقرة في ذاته، أي أن كل إنسان شيطانه بداخله.

Obeliskanda.com

## السَّحْر

سَحْرَه: يَسْحَرُه، سِحْرًا: خدعه ( أى عمل له السحر )، أو استماله،  
وفتنه، وسلب لُبّه، والسحر: الخديعة، قال ليبيد:

فإن تسألينا: فيم نحن؟ فإننا \* عسافير من هذا الأنام المَسْحَر

والسحر: الفساد، طعام مسحور: إذا أفسد عَمَلُه، وقيل طعام مسحور:  
مفسود، ونبت مسحور: مفسود. وكل عمل لَطْفَ مأخذه ودقّ فهو سِحْرٌ،  
والجمع أسحار، وسُحور، وصفة المذكر: ساحر، وتجمع على: سَحْرَة،  
وسَحَار، وسُحَار. وصفة المؤنث: ساحرة، وتجمع على ساحرات، وسَوَاحِر. (   
والسَّحْرُ): البيان في فطنة، ومنه قول رسول الله ﷺ: " إن من البيان لسحراً  
".<sup>٧٢</sup> وإنما كان بعض البيان سحراً، لأنه يروق للسامعين، ويستميل قلوبهم،  
ويغلب على نفوسهم، ويحوّل الشيء عن حقيقته، ويصرفه عن وجهته. قال  
الأزهري: وأصل السحر: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، فكأن الساحر -  
لما أرى الباطل في صورة الحق، وخبّل الشيء على غير حقيقته - قد سحر  
الشيء عن وجهه، أى صرفه. و ( السَّحْرُ ) و ( السَّحْرُ ): آخر الليل قبيل  
الصبح، وقيل: من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر. و ( السَّحُور ): طعام  
السَّحْر وشرايه، قال الأزهري: السَّحُور: ما يُتَسَحَّرُ به وقت السَّحْر من طعام،  
أو لبن أو سَوِيقٌ.

والسحر هو الأخذة وكل ما لطف مأخذ ودق. وقيل السحر هو تصور  
الباطل بصورة الحق. وقال علماء الشرع هو ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى  
الشياطين بما لا يقدر عليه الإنسان. وقال ابن خلدون في مقدمته: هو علم

بكيفية الاستعدادات تقتدر النفوس البشرية بما على التأثيرات في عالم العناصر، إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية، والأول هو السحر، والثاني هو الطلسمات.<sup>٧٣</sup>

تعتبر كلمة السحر من أقدم الكلمات اللغوية وأوسعها انتشاراً؛ إذ استخدمتها كل الشعوب، وخاصة البدائية منها، وكلمة "magie" الإنجليزية مشتقة من الكلمة اليونانية "mageia" ومن الكلمة اللاتينية "magia" التي استخدمها الكتاب الكلاسيكيون لوصف ما كان في جعبة الجوس من أهل فارس من علم سرى وممارسة مستخفية على الآخرين، وقد ارتبطت كلمة "جوس = magi" اللاتينية بتاريخ طويل يترد في أصله إلى قبيلة فارسية قديمة تخصصت في عديد من المناشط التعبدية. وثمة نزاع حول ما إذا كان الجوس منذ البداية تابعين لزرادشت وأول المريدين له. والواقع أنه منذ القرن الأول الميلادي إلى ما بعده استخدمت كلمة "جوس" للإشارة إلى السحرة والراجمين بالغيب أساساً من بابل، وقد اشتهروا بأشكال مختلفة من الحكمة. ولكن باختيار الإمبراطورية الفارسية صارت هناك تفرقة بين الجوس الفارسيين الذين نيطوا بمعرفة دينية عميقة وبين الجوس ابابليين الذين اعتبروا غالباً من السحرة المشعوذين.<sup>٧٤</sup> والواقع أن المعتقدات الدينية والمعايير الأخلاقية الفارسية تعزى ولو جزئياً على الأقل إلى تعاليم زرادشت التي حفظ بعضها في "الأفيستا" Avesta وهو الكتاب المقدس للفارسيين القدماء والتراث الأدبي العريق الوحيد لإيران القديمة. وترجع أقدم النصوص الموجودة بالأفيستا إلى عام ١٢٥٨م. ولقد تضمنت الأفيستا أيضاً قدراً كبيراً من الطقوس ووسائل التطهر

(٧٣) دائرة معارف القرن العشرين: محمد فريد وجدى

وتنظيمات تفصيلية للحياة اليومية، ولقد اعتبر زرادشت فيما بعد المؤسس للسحر، كما اعتبر الكهنة الفارسيون أو المجوس الرعيل الأول من السحرة والمنجمين.<sup>٧٥</sup>

أما بالنسبة لمجوس بابل، فإن الكتابات الدينية بسهل " Shinar "، أو تلك الخاصة ببابل وآشور فيما بعد، قد تشكلت من طقس تعبدى في هذه الحياة، وليس بعد الموت، وكذا التنبؤ بالمستقبل في ضوء ما تجلى عنه حركات الأجسام السماوية وأكباد الحيوانات المقدمة كذبائح للآلهة.<sup>٧٦</sup>

وقد ذهب البعض من أمثال " بلوتارخ Plutarech " ( نحو ٥٠ - ١٢٥ م ) إلى أن السحر قد تضمن فيما بعد تقديم الذبائح إلى " أهريمان Ahriman " خالق البشر وفق المعتقد المجوسى، ومن ثم فقد تلبس لفظ " سحر " بدلالة الشر وصار محفوفاً بالريبة، وصار مرتبطاً أشد الارتباط " بالفنون السوداء blac arts " بمظاهرها الكالحة الكثيرة، وبالأعمال السحرية التى تحاك ضد الآخرين من جانب الأشرار. ولقد انخرط تحت السحر أيضاً استخدام التمام والحصول غير المشروع على ما سيأتى به المستقبل عن طريق الرجم بالغيب، وأيضاً استحضر الأرواح الخاصة بالموتى واستشارتهم في أمور الحياة.<sup>٧٧</sup>

فالسحر قدم قدم الإنسانية، الأمر الذى جعله ينتقل من العالم الوثنى إلى العالم المسيحى. لقد دأب الإنسان منذ فجر التاريخ على ممارسة السحر باعتباره وسيلة سيطرة على الطبيعة مثل: إسقاط الأمطار، أو حدوث التحارق، أو إثارة

٧٥) Lynn Thorndike, A Short History of Civilization, P. ٩٦ نقلاً عن يوسف

ميخائيل أسعد: السحر والتنجم ص ٦٤

٧٦) المصدر السابق ص ٦٤

٧٧) المصدر السابق ص ٤١

الرياح والزوايع، وكسبب في الأمراض والحوادث المميتة، التي تصيب الإنسان والزرع والضرع.

اتخذت الكنيسة منذ البداية موقفاً معادياً للسحر وعملت كل ما تستطيع لإبطال مفعوله السيء والشري. وفي أواخر القرن التاسع أصدرت الكنيسة بعض القوانين الخاصة بكيفية معاملة السحرة، ومنحت هذه القوانين الأسقف المحلي في توقيع الحرمان الكنسي على السحرة وطردهم من أسقفيته إذا لم يتوبوا وظلوا في غيهم سادرين. ورغم أن الكنيسة أُنحت بالملامة والتقريع على المسيحي الذي يؤمن بقدرة السحرة على استحضار الأرواح والشياطين، فإنها كانت في بادئ الأمر تعتبر ممارسة السحر هرطقة. غير أن موقفها هذا لم يلبث أن تغير في القرن الثاني عشر، فقد بدأت ترى في اتصال السحر بالشياطين التشجيع على احترام هذه الشياطين، ومن ثم دعاها هذا إلى إعادة النظر في السحر باعتباره ضرباً من ضروب الهرطقة. وبحلول منتصف القرن الثاني عشر درجت الكنيسة على اعتبار السحر نوعاً من عبادة الشياطين وتقديسها. وبعد مرور فترة من الزمن كانت الكنيسة تلاحق السحرة وتضطهدهم، ففي النصف الثاني من القرن الثالث عشر دُفِعَ بعض المحققين في محاكم التفتيش إلى استقصاء بعض حالات السحر التي يعقد فيها الساحر صفقة مع الشيطان، وهي صفقة يعطى فيها الساحر صكه للشيطان مقابل أن يعطيه المتعة والقوة والقدرات الخارقة للطبيعة. وفي الفترة من ١٢٢٣-١٢٣٣ كلف البابا جريجوري التاسع كونراد جورج بالتصدي للهرطقة في ألمانيا، فأبلغ كونراد هذا البابا بانتشار هرطقة تدعو إلى عبادة الشيطان، وطلب منه ضرورة التدخل لاستئصالها. إننا إزاء موقف كنسي أقل تشدداً في الفترة بين ١٢٥٨، ١٢٦٠ حيث ينصح البابا ألكسندر الرابع بعض المحققين في محاكم التفتيش ممن التمسوا مشورته أن يبذلوا

قصارى جهدهم في اكتشاف الهرطقة والضرب عليها بيد من حديد، ولكن مع ضبط النفس في حالة السحر إلا إذا كانت الحالة شديدة الوضوح، ويستحيل السكوت عليها، ثم عادت الكنيسة إلى اتخاذ موقف من السحر أكثر تشدداً في عام ١٤٨٤م عندما أدخل البابا أنسونت الثامن تعديلات على الموقف البابوي المتساهل تجاه السحر، وأصدر تعليمات مشددة إلى محاكم التفتيش ألا تأخذهم أدنى شفقة أو رحمة بالمتعاملين مع الشيطان.<sup>٧٨</sup>

ومن هنا ارتبطت المبادئ السحرية بالدين، واتصلت به اتصالاً وثيقاً، وهي في الوقت نفسه لا تنفصل عن ظاهرة المعجزة، بمعنى أن كلاً منهما يبدو تغييراً للظواهر الطبيعية.

ورغم هذا يجب أن نفرق بين الدين والسحر، فالسحر - بمعناه الحقيقي - شيء مكتسب، أي قواعد يتعلمها الممارس له، وهذه القواعد تتركز على قوانين عقلية، أبسط ما يقال عنها: "إنها درجة قبل العلم" فالواقع أنهما مبادئ جوهرية وأساسية تماماً للفكر الإنساني. وإذا تم تطبيقها بطريقة سليمة فإنها تؤدي إلى العلم، بينما تطبيقها بطريقة غير سليمة و "غير مشروعة" يؤدي إلى السحر، وهو الأخ غير الشرعي للعلم. ولذا فإن من البديهي - بل إنه قد يكون مجرد تكرار للمعاني - أن نقول: إن السحر بأشكاله المختلفة هو بالضرورة علم زائف عقيم، لأنه لو حدث أن صدق وأثر لخرج عن دائرة السحر. ولقد اهتم الإنسان منذ أقدم العصور بالبحث عن القواعد العامة التي يستطيع بها أن يخضع نظام الظواهر الطبيعية لصالحه الخاص، واستطاع خلال بحثه الطويل أن يقوم بتجميع عدد كبير من تلك القواعد التي تتفاوت في الأهمية والقيمة. فاما

القواعد الصحيحة أو الذهبية فإنها تؤلف مجموعة العلوم التطبيقية التي نسميها بالفنون، وأما القواعد الزائفة فإنها تؤلف سحر. " ٧٩

فالسحر ملكة يملكها بعض الأذكاء، وتفتقر بسبب طبائعهم المحدودة إلى إضفاء ثوب الدين على ما يقومون به من أعمال تبدو خارقة للعادة، فيربطون بينها وبين من يملك تلك القوة الغيبية التي تتحكم في قوى الطبيعة، ألا وهو المقدس. ولما كان الإنسان البدائي يحاول إرضاء المقدس، وصلته به أقرب عن طريق الساحر، اختلط السحر بالدين، إلا أنه غالباً ما يكون السحر أحط درجة من الدين؛ وذلك عندما يساء استعمال العبادات الدينية، إذ تفقد روحها، ولا تؤدي إلى الهدف الذي فرضت من أجله، فتتردى إلى شعوذة يمسك زمامها الدجالون، ومن يلهثون وراء المال والجاه عن طريق إرضاء عواطف العامة الذين لا يفقهون معنى العبادات وروحها.

فهو يعتبر من الفنون المنتشرة بينها على نطاق واسع، وهو - كما يعتقدون - يجرى على يد من عنده قوة خارقة تمكنه من ممارسة هذا الفن، مصحوباً بطقوس معينة بغية المساعدة لتحقيق رغبة، أو لإلحاق ضرر بالآخر وهو أنواع كثيرة، منها على سبيل المثال: سحر يتعامل مع الطقس لاستدراار المطر، أو تحويله إلى منطقة أخرى، وكذلك للوقاية من غضب الطبيعة، وسحر الإخصاب، وسحر الهلاك، وسحر الشفاء، وسحر التوسل...و...و...إلخ. وكثيراً ما يخضع المتدينون للساحر متوسلين إليه أن يناشد القوة الخارجة المتصل بها لتحقيق ما يريدونه، كما أن هناك سحر الأطباء والكهنة، وهو في كل حالاته أقرب إلى الشعوذة (أو الجلا جلا = الجلاجليون) منه إلى التفكير

العقلي، لأن العقل يرفض كل عمل يدعى صاحبه القدرة على تحويل الطبيعة، أو إحداث ظاهرة دون وجود أساسها المقبول عقلاً. ومن هنا يرى المفكرون أن السحر عمل تُقَرَّب فيه إلى الشيطان ومعمونة منه.

لقد دأب الإنسان منذ فجر التاريخ على ممارسة السحر باعتباره وسيلة سيطرة على الطبيعة، مثل إسقاط الأمطار، أو حدوث التحريق، أو إثارة الريح والزوابع، وكسبب في الأمراض والحوادث المميتة التي تصيب الإنسان والزرع والضرع، ولذا شاع بين المجتمعات الوثنية، كما انتشر في المجتمعات التي تسدين بالأديان السماوية.

والسحر نوعان:

١ - السحر التشاكلي أو سحر المحاكاة: وهو يتمثل في اعتقاد الساحر أن ما يلحقه بالشبيه يحدث مثله للأصل، ويظهر هذا جلياً في المحاولات التي يقوم بها كثير من الناس في مختلف العصور لإلحاق الأذى أو الدمار بأعدائهم عن طريق إيذاء أو تدمير صورهم، اعتقاداً منهم أن ما يلحق بالصورة من شر وضرر يلحق بصاحبها، وأنه حين يتم تدمير الصورة يموت الأصل بالضرورة. ويمكن أن نذكر هنا جانباً يسيراً من الأمثلة الكثيرة التي تظهر في الحال مدى انتشار هذه العادة في العالم واستمرارها الفريد خلال الزمن. فلقد قامت هذه الممارسات منذ آلاف السنين عند سحرة الهند القديمة وبابل ومصر، وكذلك في بلاد اليونان وروما، كما أنها لا تزال شائعة حتى الآن عند الجماعات الممجيّة الخبيثة الشريرة في استراليا وإفريقيا واسكتلندا، فالهنود الحمر في أمريكا الشمالية يعتقدون أن رسم صورة الشخص في الرمل أو الرماد أو الطين أو الحصول على أي جزء من جسمه ونخسه بقطعة حادة من الخشب، أو إلحاق أي نوع آخر من الأذى به يستتبع إلحاق أذى مماثل بالشخص ذاته الذي تمثله هذه الصورة.

وعلى ذلك فحين يريد شخص عند هنود " أو جيوای Ojebway " إيذاء أحد أعدائه فإنه يصنع له تمثالاً صغيراً من الخشب، ثم يغرز إبرة في رأسه، أو قلبه، أو يطلق عليه سهماً، اعتقاداً منه أن عدوه سوف يشعر بالآلام حادة نفاذة في ذلك الجزء من جسمه الذي يقابل الموضع الذي أصابته الإبرة أو السهم من التمثال. أما إذا كان يريد قتل عدوه مباشرة وفي التلو واللحظ فإنه يحرق التمثال أو يدفنه وهو يردد بعض الصيغ السحرية. كذلك كان الهنود الحمر في بيرو يصنعون من الدهن المخلوط بالحنطة تمائيل على هيئة الأشخاص الذين يكرهونهم أو يرهبونهم ويحرقونها في الطريق الذي يسلكه هؤلاء الأعداء، ويعرف ذلك عندهم باسم " حرق الروح " .<sup>٨٠</sup>

٢ - السحر الاتصالي: وهو يقوم على فكرة أن الأشياء المتصلة تظل - حتى بعد أن تنفصل تماماً: أحدهما عن الآخر - في علاقة تعاطف، بحيث أن ما يطرأ على أحدهما يؤثر بالضرورة تأثيراً مباشراً على الآخر.... وربما كان أشهر مثل للسحر الاتصالي هو التعاطف السحري الذي يُفترض وجوده بين الإنسان وأجزاء جسمه كالشعر والأظافر، حتى بعد أن تنفصل هذه الأجزاء عنه، بحيث أن وقوع شعر شخص ما أو أظافره في يد شخص آخر يجعله حاضراً لإرادته، مهما بعدت المسافة بينهما. وتشيع هذه الخرافة في العالم كله.

ويتمثل أحد التطبيقات الغريبة لنظرية السحر الاتصالي فيما يتصوره كثير من الناس من وجود علاقة قوية بين الشخص الجريح ومصدر الجرح، بحيث أن كل ما يطرأ على ذلك المصدر، أو ينشأ عنه يكون له بالضرورة تأثير مماثل في

٨٠ ( الواقع أن هذا الأسلوب من السحر شائع جداً في كل المجتمعات المعروفة، مع خلاف في درجة الممارسة والتطبيق. ويوجد هذا الأسلوب في مجتمعاتنا كما هو الحال مثلاً في صنع " عروسة " من الورق وغرزها بالإبر في عدة مواضع، ثم إحراقها لإبطال الحسد. [ أحمد أبو زيد في هامش ص ١١٠ من كتاب: الغصن الذهبي ]

الشخص المريض نفسه، سواء كان ذلك التأثير مفيداً أو ضاراً. ويذكر لنا " بليني Pliny " أنه لو أصاب شخص ما شخصاً آخر بجراح، ثم شعر بالأسى لما فعل، فما عليه إلا أن يتفل على اليد التي سببت الجرح فيزول الألم في الحال. وفي ماليزيا يبذل أصدقاء الرجل الجريح جهودهم ليحصلوا على السهم الذي أصابه، ثم يضعونه في مكان رطب، أو يدفنونه بين أوراق الشجر النديّة، فيخفف ذلك من التهاب الجرح ويبرأ بعد فترة وجيزة من الزمن، وذلك في الوقت الذي يعمل فيه العدو الذي أطلق السهم كل ما في وسعه لكى يزيد الجرح سوءاً، كأن يشرب هو وأصدقاؤه السوائل و الأشربة الساخنة الملتهية، أو يمضغ الأوراق الحريفة، أملاً في أن يزيد ذلك من التهاب الجرح وتهيجه. بل إنهم يضعون القوس أيضاً بالقرب من النار، لكى يحققوا نفس الغاية.

وربما كانت العلاقة التعاطفية المفروضة وجودها بين الرجل والسلاح الذى جرحه ناشئة من فكرة أن الدم الذى يلوث السلاح يستمر في الإحساس والتجاوب مع الدم الذى يسرى في جسم الجريح. ومثل هذا السبب تحرص جماعات " البابوان Papuans " في " تومليو Tumleo " - وهى إحدى الجزر القريبة من غينيا الجديدة - على أن يلقوا في البحر بالضمادات الملوثة بالدماء، بعد أن تكون قد استخدمت في تضميد الجروح، وذلك حتى لا تقع في أيدي أعدائهم فيستخدمونها في ممارسة السحر للإضرار بهم وإيذائهم. ولقد حدث ذات مرة أن جاء رجل إلى مقر إحدى الإرساليات التبشيرية هناك والدم يترف من فمه، بينما كانت زوجته تتبع خطواته، وتبذل كثيراً من الجهود المضنية، لكى تجمع كل الدم الذى نزف منه لإلقائه في البحر. وعلى الرغم من كل ما يبدو من شذوذ هذه الفكرة وغرابتها بالنسبة لنا، فقد تكون أقل غرابة من الاعتقاد في التعاطف السحري بين الشخص وملابسه، بحيث أن ما يحدث

للملابس ينعكس بالضرورة على صاحبها، مهما كان بعيداً عنها في ذلك الوقت. مثال ذلك: أن الساحر في قبيلة " وتجبالكوك " Wotjobaluk " في فكتوريا قد يحصل على قطعة من فراء الأيسوم التي يستخدمها أحد الأشخاص ويشويها ببطء على النار، فيشعر صاحبها بالمرض بداخله أثناء ذلك. فإذا أمكن إقناع الساحر بأن يوقف مفعول سحره فإنه يسلم قطعة الفراء إلى أصدقاء المريض، ويطلب إليهم أن يضعوها في الماء كما لو كانوا يطفئون النار، وبمجرد أن يتم ذلك يشعر المريض بالراحة والهدوء حتى يشفى تماماً.

وعند السلاف الجنوبيين تحاول الفتاة أن تجمع التراب الذي انطبعت فيه آثار أقدام الرجل الذي تعشقه، ثم تضعه في آنية الزهور، وتررع فيه إحدى أزهار القطيفة الذهبية ( الماريجولد Marigold ) - وهي من الزهور التي لا تذبل أبداً - أما في أن ينمو جها دائماً في قلبه فلا يذبل أبداً، مثلما تنمو القطيفة الذهبية وتزدهر. وينتقل مفعول هذه التعويذة الغرامية عن طريق التراب الذي داس عليه.

ومع أن آثار الأقدام هي أوضح الآثار التي يمكن للجسم أن يتركها وراءه، فإنها ليست الشيء الوحيد الذي يمكن الاستعانة به في التأثير السحري على الإنسان؛ فالأهالي الوطنيون في جنوب غرب استراليا يعتقدون أنه من السهل إلحاق الأذى بأي شخص عن طريق دفن بعض شظايا الكوارتز أو الزجاج أو غير ذلك من الأجسام الحادة في الأثر الذي يطبعه جسمه أثناء الاسترخاء، فتسرى الخاصية السحرية التي تكمن في تلك الأجسام الحادة إلى جسم الضحية وتسبب له آلاماً مبرحة يردها الأوربيون إلى الروماتيزم. وهذا يفسر لنا السبب في أن الفيساغوريين كانوا يعتبرون من أهم المبادئ التي يجب على المرء التمسك بها أن يقوم بترتيب فراشه بمجرد الاستيقاظ من النوم، حتى تختفى تماماً كل

الآثار التي طبعها جسمه على الفرش. فليست هذه القاعدة - بكل بساطة - سوى إجراء وقائي ضد السحر، وهي بذلك جزء من قانون كلي عام يصدق على جميع القواعد والمبادئ الخرافية التي كان القدماء ينسبونها إلى فيساغورس، وإن لم يكن ثمة أدنى شك في أنها كانت معروفة لدى الأسلاف الهمج الذين انحدر منهم اليونانيون القدماء قبل أن يولد فيثاغورس بعهد طويل.<sup>٨١</sup>

ويمكن تصنيف السحر من ناحية التأثير إلى ثلاثة أنواع رئيسية: سحر إنتاجي، وسحر وقائي، وسحر تحطيمي أو هدمي.

فالسحر الإنتاجي بما له من أهمية طقسية يهتم في المقام الأول بالإتيان بنتائج إيجابية وفيرة، كأن يأتي بمحصول أوفر، أو حصيلة أكبر من صيد السمك... إلخ، وهذا النوع من السحر قد يساعد في تنظيم الجانب التقني من النشاط، كما أنه يعمل على حث العاملين لبذل جهد أغزر، كما يعطيهم ثقة أكبر في أن جهودهم المبذولة سوف تضمن لهم جزءاً عظيماً.

أما السحر الوقائي، وهو السحر الذي يستهدف إبعاد الخطر وسوء الحظ أو المرض، فإنه قد يعطى المشاركين فيه الثقة الضرورية للنجاح، أو للطمأنينة بما يعمل بلا شك على الحصول على طاقة نفسية دفاعية عظيمة.

أما النوع الثالث، وهو السحر التحطيمي، أو الهدمي.... وهو ما يعتقد أنه ينبع من هبة خاصة أو استعداد معين لدى الفرد. وهو كثيراً ما يكون مصدراً للإشراف أو التحكم الاجتماعي، وذلك لأن أولئك المسكينين بزمام السلطة بالمجتمع يخشون من استخدام قوة هذا النوع من السحر ضدهم، كما أنه ممن جهة أخرى قد يصير وسيلة نفسية، وذلك لأنه يسمح لأي شخص بأن يحطم

٨١ ( راجع: سير جيمس فريزر: الفصن الذهبي، صفحات: ١٠٩-١١٠، ١٨١، ١٩٠-١٩١، ١٩٦،

عدوه في نطاق خياله، ومن ثم فإنه يتحاشى استخدام العنف بيديه، لهذا فإن السحر قد احتل مكانة هامة بغالبية المجتمعات البدائية، وقد ظل محتفظاً بدرجة معينة من التأثير، على الرغم من التحديات التي تصادفه اليوم في ظل الحضارة الإنسانية المادية.<sup>٨٢</sup>

كان موقف الكنيسة من السحرة متأرجحاً، فقد تشددت في محاربتهم في بادئ الأمر، وعملت كل ما تستطيع لإبطال مفعول السحر السبيء والشرير؛ إذ أصدرت في أواخر القرن التاسع الميلادي قراراً بتوقيع الحرمان الكنسي على السحرة، إلا أنها كانت أقل تشدداً في الفترة بين عامي ١٢٥٨م و1260م؛ حيث نصح البابا " ألكسندر " الرابع بعض المحققين في محاكم التفتيش أن يبذلوا قصارى جهدهم في اكتشاف الهرطقة والضرب عليها من حديد، مع ضبط النفس في حالة السحرة. ثم عادت الكنيسة إلى اتخاذ موقف من السحرة أكثر تشدداً في عام ١٤٨٤م، عندما أدخل ابابا " أنسونت " الثامن تعديلات على الموقف البابوي المتساهل تجاه السحرة، وأصدر تعليمات مشددة إلى محاكم التفتيش ألا تأخذهم أدنى شفقة أو رحمة بهم، وذلك استناداً إلى تشدد في الكتاب المقدس ضد السحرة، فقد هددهم، وهدد من يثقون فيهم بالعقاب الشديد، وأوضح أن أعمال السحرة مرفوضة أمام الله، وأن الله يستاء ممن يتعاملون معهم، فيقول في سفر ملاحى: ".... وَأَكُونُ شَاهِدًا سَرِيعًا عَلَى السَّحَرَةِ وَعَلَى الْفَاسِقِينَ وَعَلَى الْحَالِفِينَ زُورًا...." [٥:٣]

كما بيّن الكتاب المقدس أن مثل هذه الأعمال نوع من النجاسة، وعادة ما يعيش القائمون بهذه الأعمال مرفوضين من الله، حتى يتوبوا، ويرجعوا عنها،

وقد كانت نهاية حياة الكثيرين منهم نهاية مؤسفة، تتفق مع البعد عن الله، والتعاون مع الشيطان؛ فبعضهم مات مقتولاً بيد بعض الناس الذين أضرروا من أعمالهم، والبعض الآخر صرعته الشياطين، أو أفقدته النطق، لأنه رفض لها طلبها.

ويتضح من هذا: أن المسيحية رفضت السحر، واعتبرته من الأعمال التي لا تتناسب مع شريعتها، التي كان من أهم دعائمها التي قامت عليها الدعوة إلى محبة الله.<sup>٨٣</sup>

٨٣) سليم ص ٨٨ نقلاً عن مصطفى الخشاب: تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية، القاهرة، لجنة البيان العربي

obeikandi.com

## موقف الإسلام من السحر

### والسحرة

يرى كثير من علماء المسلمين أن السحر خدعة ولا واقع له، ولذا قال الله تعالى على لسان فرعون: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سَحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى﴾ [طه: ٦٣]، أى مخادعان، يريدان أن يخرجاكم بخداعهما، فليس معهما حقيقة، ولا واقعية لما يدعيانه.

فالسحر هو تخييل فقط ولا حقيقة له، وهذا هو اختيار أبي جعفر الاستراباذى من الشافعية، وأبي بكر الرازى من الحنفية، وابن حزم الظاهري، ووافقهم طائفة من العلماء، منهم رشيد رضا، حيث يقول: " المعنى الجامع للسحر أنه أعمال غريبة من التليس والحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم بأسبابها، فمتى عرف سبب شيء منها بطل إطلاق اسم السحر عليه، ولذلك كان المعارضون للرسول يعدون ما يظهر على أيديهم من معجزات من قبيل السحر، ويجعلون هذا مانعاً من دلالتها على صدقهم ومن تأييد الله تعالى لهم، لأن السحر صنعة تكتسب بالتعليم والتمرين، فيمكن لكل أحد أن يكون ساحراً، إذا أتبح له من يعلمه السحر " .

فلو استعرضنا آيات القرآن الكريم لتبين لنا الأسباب التي دعت المكذبين إلى اتهام الرسل عليهم السلام بالسحر، نذكر منها:

١. الكفر، قال تعالى مبيناً ذلك: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَنَتْلِيَ الْكُفْرَ الَّذِي كَفَرُوا بِهٖ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبِّهِمْ لَأُكْفِرُونَّ إِن كُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٢]

٢. الطغيان والعلو والاستكبار، قال تعالى مبيناً ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣]

٣. الظلم، قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ

نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ [الإسراء: ٤٧]

٤. الطمع وحب المال، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا

لِنَأْتِيَنَّهُ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ [الشعراء: ٤١]

٥. اتباع الهوى، يقول تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن

يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ

وَكَفَلُ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ [الفر: ١ - ٣]

إذا أردنا أن نؤرخ لهذه التهمة، فليس هناك كتاب تاريخي يؤرخ لها بشكل دقيق مثلما يعطيها القرآن - وإن لم يكن كتاباً تاريخياً - حقها من العراقة والقدم والامتداد في تاريخ الشعوب والمجتمعات الدينية، حيث يذكر أن هذه التهمة استعملت ضد كل الرسل الذين أرسلوا هداية إلى أقوامهم، أى بعبارة أخرى منذ أن تشكل أول مجتمع بشري بعد نبي الله آدم عليه السلام، ومنذ أن بعث لذلك المجتمع الأول رسول هداية.

نعم، لقد تلقى جميع الرسل عليهم السلام هذه التهمة الظالمة من قبل خصومهم، فقد قال الله تعالى مشيراً إلى هذا العمق التاريخي لهذه المواجهة، وإلى عراقتها في تاريخ المواجهات ضد رسله عليهم السلام: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ [الذاريات: ٥٢] <sup>٨٤</sup>

ذكر الرازي تسعة أنواع للسحر:

**الأول:** سحر الكلدانيين الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة، وهى السيارة، وكانوا يعتقدون أنها مديرة العالم، وأنها تأتي بالخير والشر، وهم الذين بعث الله إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام مبطلاً لمقاتلتهم، وراداً لمذهبهم.....

**الثانى:** سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية، ثم استدل على أن الوهم له تأثير بأن الإنسان يمكنه أن يمشى على الجذع الموضوع على الأرض، ولا يمكنه المشى عليه إذا كان ممدوداً على ظهره. قال وكما أجمعت الأطباء على ففى المعروف عن النظر إلى الأشياء الحمر، والمصروع إلى الأشياء القوية للمعان أو الدوران، وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام.....

**الثالث:** الاستعانة بالأرواح الأرضية، وهم الجن خلافاً للفلاسفة

والمعتزلة.....

**الرابع:** سحر التخيلات والأخذ بالعيون، والشعبذة، ومبناه على أن البصر قد يخطئ ويشغل بالشيء المعين دون غيره، ألا ترى هذا الشعبذة الحاذق يظهر على عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء بالتحديث ونحوه عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة، وحينئذ يظهر لهم شيئاً آخر، غير ما انتظروه، فيتعجبون منه جداً، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمله، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجها لفظن الناظرون لكل ما يفعله..... وقال بعض المفسرين: إن سحر السحرة بين يدي فرعون إنما كان من باب الشعبذة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْرَبُوهُمْ وَجَاءَ وَسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَتْهُمُ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخِيَلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَى ﴿٦٦﴾ [طه: ٦٦]، فلم تكن تسعى فى الحقيقة.

**الخامس:** الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب آلات مركبة على النسب الهندسية، كفارس على فرسه في يده بوق، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد... ومنها الصور التي تصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان، حتى يصيرونها ضاحكة وباكية إلى أن قال: فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاليل، قال: وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل.

فالسحرة - كما قال بعض المفسرين - عمدوا إلى تلك اخبال فحشوها زئبقاً، ثم لما ألقيت تمدد الزئبق بتأثير الحرارة، فصارت تتلوى بسبب تمدد ما فيها من زئبق، فخيّل إلى الرائي أنها تسعى باختيارها. قال الرازي: ومن هذا تركيب صندوق الساعات، ويندرج في هذا الباب علم جر الأنتقال بالآلات الخفيفة، قال: وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعد من باب السحر، لأن لها أسباباً معلومة يقينية، من اضطلع عليها قدر عليها....

**السادس:** من السحر الاستعانة بخواص الأدوية، يعنى في الأطعمة والدهانات، قال: واعلم أن لا سبيل إلى إنكار الخواص، فإن تأثير المغناطيس مشاهد. قلت: يدخل في هذا القبيل كثير ممن يدعى الفقر، ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص، مدعياً أنها أحوال له من مخالطة النيران ومسك الحيات، إلى غير ذلك من المحالات.

**السابع:** من السحر التعليق للقلب، وهو أن يدعى الساحر أنه عرف الاسم الأعظم، وأن الجن يطيعونه، وينقادون له في أكثر الأمور، إذا اتفق أن يكون ذلك السامع ضعيف العقل، قليل التمييز، اعتقد أنه حق، وتعلق قلبه بذلك، وحصل في نفسه نوع من الرعب والخافة، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء...

الثامن: من السحر السعى بالنميمة، والتقريب من وجوه خفيفة لطيفة، وذلك شائع في قلوب المؤمنين، فهذا حرام متفق عليه، فأما إن كانت على وجه الإصلاح بين الناس وائتلاف كلمة المسلمين، كما جاء في الحديث: " ليس بالكذاب من ينم خيراً " <sup>٨٥</sup>، أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة، فهذا أمر مطلوب، كما جاء في الحديث: " الحرب خدعة " <sup>٨٦</sup>، وكما فعل نعيم بن مسعود في تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين قريظة " <sup>٨٧</sup> قاوم الإسلام السحر والسحرة، فبين أنه فضلاً عن ضرره، فحكم ممارسته يرقى إلى درجة الكفر، يقول تعالى: ﴿ وَيَنعَلَمُونَ مَا يَصُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٢]

وقد عد النبي ﷺ السحر من كبائر الذنوب، والموبقات التي تهلك الأمم قبل الأفراد، قال رسول الله ﷺ: " إجتنبوا السبع الموبقات "، أى المهلكات، قالوا: وماهى يارسول الله؟ قال: " الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات " <sup>٨٨</sup>.

وقد اعتبر بعض فقهاء الإسلام السحر كفرة، أو مؤدياً إلى الكفر، وذهب بعضهم إلى وجوب قتل الساحر، تطهيراً للمجتمع من شره.

( ٨٥ ) راجع البخارى ج ٢ ص ٩٨٥ رقم ٢٥٤٦

( ٨٦ ) راجع البخارى: باب الحرب خدعة ج ٢ ص ١١٠٢ رقم ٢٨٦٤

( ٨٧ ) بيومى ص ٢١ - ٢٤. وراجع الرازى: التفسير الكبير ج ٣ ص ١٨٧ - ١٩٣.

( ٨٨ ) البخارى ج ٣ ص ١٠١٧ رقم ٢٦١٥.

obeikandi.com

## هاروت وماروت

يقول الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوَتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنْ أُشْرِكُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢]

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية نصوصاً كثيرة، وحاصل هذه النصوص أن الشياطين في عهد ملك سليمان عليه السلام كتبوا أصنافاً من السحر، ووضعوها تحت الكرسي الذي كان يجلس عليه النبي سليمان عليه السلام، فلما مات سليمان أخرج الشياطين هذه الكتب التي دونوا فيها السحر، وأظهروها للناس، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يسوس الناس بهذا السحر، فرماه اليهود بالكفر وسبوه؛ لزعمهم أنه كان يعمل بالسحر، فأنزل الله هذه الآية يُرَى فيها سليمان بن داود من السحر والكفر، مبيناً أن هذا السحر إنما هو من عمل الشياطين، وأن الشياطين هم الذين كفروا بسبب تعليمهم السحر للناس.<sup>٨٩</sup>

فمن هما هاروت وماروت؟

رُويَ أنَّهما ملكان أنزلهما الله من السماء إلى الأرض، وأذن لهما في تعليم السحر، اختباراً لعباده، وامتحاناً بعد أن يبين لعباده أن ذلك مما يُنهي عنه على

(٨٩) بيومي ص ١٦، وراجع الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن ج ١ ص ٣٥٢ وما بعدها.

السنة الرسل<sup>٩٠</sup>، وقد امتثل هاروت وماروت لأمر الله لهما، فكان الرجل إذا

٩٠ ( نسج الفكر الإسلامي حولهما الأساطير ومن أشهرها مارواه الثعلبي، نوردها كاملة ليتبين للقارئ مدى تغلغل الجانب الأسطوري في الفكر الإسلامي، وهو ما رأينا أنه من الواجب علينا الإسهام في تنقية هذا الفكر من الخرافات التي انحدرت إليه من عقائد البدائين وأفكارهم، قال الثعلبي: "..... إن الشياطين كتبوا السحر والتنجيمات على لسان آصف في مدة زوال ملك سليمان: هذا ما علم آصف بن برخيا سليمان الملك، ثم دفنوها تحت مصلاه، ولم يشعر بذلك سليمان، فلما مات سليمان استخرجوها من تحت مصلاه، وقالوا للناس: ما ملككم سليمان إلا بهذه. قال السدي: وذلك أن شيطاناً تمثل على صورة إنسان، فأتى نفرًا من بني إسرائيل، فقال: هل أدلكم على كثر لا ينفد أبدًا؟ قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت كرسى سليمان، وذهب معهم فأراهم المكان، وقام ناحية، فقالوا له: أدن!، فقال: لا، ولكني ههنا، فإن لم تجدوه فاقتلوني، وذلك أنه لم يكن أحد من الشياطين يدنو من الكرسي إلا احترق، فحفروا، فوجدوا تلك الكتب؛ فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان كان يضبط الجن والإنس والشياطين والطيور بهذا، ثم طار الشيطان وذهب. فأما علماء بني إسرائيل وصلحاحوهم فقالوا: معاذ الله أن يكون هذا علم سليمان، فإن كان هذ علمه، فقد هلك سليمان، وأما الجهال والسفلة فأقبلوا على تعلمه ورفضوا كتب أنبيائهم، فأنزل الله هذه الآية، إظهاراً لعذر سليمان، وبياناً لبراءته، فهذه قصة الآية.

وأما قصة هاروت وماروت، فقال المفسرون: إن الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة وذنوبهم الكبيرة، وذلك في زمن إدريس عليه السلام عيروهم بذلك، وأنكروا عليهم، وقالوا: هؤلاء الذين جعلتهم حلفاء في الأرض، واخترتهم، فهم يعصونك، فقال تعالى: لو أنزلتكم في الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لفتلتم مثل ما فعلوا، قالوا: سبحانك ربنا ما كان ينبغي لنا أن نعصيك، قال الله تعالى: اختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض، فاختراروا هاروت وماروت، وكانا من أصلح الملائكة وأعبيدهم. قال الكلبي: قال الله تعالى: اختاروا ثلاثة منكم، فاختراروا عزا: وهو هاروت، وعزايبا، وهو ماروت، وعزريائيل، وإنما غير اسميهما لما اقترفا من الذنب، كما غير الله اسم إبليس، وكان اسمه عزازيل، فركب الله تعالى فيهم الشهوة التي ركبها في بني آدم، وأهبطهم إلى الأرض، وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق، ونهاهم عن الشرك، والقتل بغير الحق، والزنا، وشرب الخمر.

أما عزريائيل فإنه لما وقعت الشهوة في قلبه، استقال ربه، وسأله أن يرفعه إلى السماء، فأقاله، ورفع، وسجد أربعين سنة، ثم رفع رأسه، ولم يزل بعد ذلك مطاطناً رأسه حياءً من الله تعالى. وأما الآخران فإنهما ثبتا على ذلك يقضيان بين الناس يومهما، فإذا أمسيا ذكرا اسم الله تعالى الأعظم، وصعدا إلى السماء. قال قتادة: فما مر عليهما شهر حتى افتتا، وذلك أنه اختصم إليهما ذات يوم الزهرة، وكانت من أجمل النساء. قال علي عليه السلام: كانت من أهل فارس: وكانت ملكة في بلدها، فلما رأياها أخذت بقلوبهما، -

=فراوداها عن نفسها فأبى وانصرفت، ثم عادت في اليوم التالي فعلا مثل ذلك، فقالت: لا، إلا تعبدا ما أعبد، وتضليا لهذا الصنم، وتقتلا النفس، وتشربا الخمر. فقالوا: لا سبيل إلى هذه الأشياء، فإن الله قد هاننا عنها، فانصرفت، ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من حمر، وفي نفسها من الميل إليهما ما فيها، فراوداها عن نفسها، فأبى وعرضت عليهما ما قالت بالأمس، فقالوا: الصلاة لغير الله أمر عظيم، وقتل النفس عظيم، وأهون الثلاثة شرب الخمر، فشربا الخمر، فانتشيا، ووقعا بالمرأة وزنيا بها، فرأهما إنسان فقتلاه. قال الربيع بن أنس: وسجدا للصنم، فمسخ الله الزهرة كوكباً. وقال علي رضي الله عنه، والسدي، والكلبي: إنها قالت: لا تدر كان حتى تعلمان الذي تصعدان به إلى السماء، فقالوا: نصعد باسم الله الأعظم، فقالت: فما أنتما بمدركي حتى تعلمانيه، قال أحدهما لصاحبه: علمها، فقال: إن أخاف الله، فقال الآخر: فأين رحمة الله تعالى؟ فعلمها ذلك، فتكلمت به وصعدت إلى السماء، فمسخها الله تعالى كوكباً. قال الأستاذ: فعلى قول هولاء، هي الزهرة بعينها، وقال آخرون: هي هذا الكوكب الأحمر، واسمها بالفارسية: ناهيد، وبالقطبية: بادخت. يدل على صحة هذا القول ما أخبرنا به يحيى بن إسماعيل بإسناده عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قال: كان النبي ﷺ إذا رأى سهيلاً قال: "لعن الله سهيلاً، إنه كان عشراً باليمن، ولعن الله الزهرة، فإنها فتنت ملكين: هاروت وماروت".

وقال مجاهد: كنت مع ابن عمر ذات ليلة، فقال لي: أرمق الكوكب: يعني الزهرة، فإذا طلعت فأيقظني، فلما طلعت أيقظته، فلما نظر إليها سبها سباً شديداً، فقلت: يرحمك الله، تسب نجماً ساطعاً مطيعاً؟ فقال: إن هذه كانت بغيًا، فلقى الملكان منها ما لقيها، وكذلك قال ابن عباس. وأنكر الآخرون هذا القول، وقالوا: الزهرة من الكواكب السبعة السيارة التي جعلها الله تعالى قواماً للعباد، وأقسم بها، فقال تعالى: ﴿فَلَا أُقِيمُ بِالْحَنِينِ ۝ الْجَوَارِ الْكُنِينِ ۝﴾ [التكوير: ١٥ - ١٦]. وإنما كانت التي فتنت هاروت وماروت امرأة تسمى زهرة جمهاها، فلما زنت مسخها الله شهاباً، فلما رأى رسول الله ﷺ الزهرة، ذكر تلك المرأة الموافقة لهذا الاسم فلعنها، وكذلك سهيل العشار كان رجلاً، فلما رأى رسول الله ﷺ هذا النجم الموافق اسمه لاسم هذا الرجل لعنه، يدل عليه ما روى قيس بن عباد عن ابن عباس في هذه القصة، قال: كانت امرأة فضلت على النساء بالحسن والجمال كما فضلت هذه الزهرة على سائر الكواكب. قالوا: فلما أمسى هاروت وماروت بعد ما قارفا الذنب هما بالصعود إلى السماء، فلم تطاوعهما أجنحتهما، فعلما ما حل بهما، فقصدا إلى إدريس عليه السلام فأخبراه بأمرهما، وسألاه أن يشفع لهما إلى الله تعالى، وقال له: إنا رأيناك يصعد لك من العبادة مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض، فاشفع لنا إلى الله تعالى، قال: ففعل إدريس ذلك، فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، لأنه ينقطع، فهما يبابل يعذبان.

واختلف العلماء في كيفية عذابهما، فقال ابن مسعود: هما معلقان بشعورهما إلى قيام الساعة. وقال مقاتل: كُتِلَا من أقدامهما إلى أفخاذهما. وقال مجاهد: مُلِيَ جب ناراً فحجلا فيه. وقال عمرو بن سعيد: هما معلقان منكسان في السلاسل، يضربان بسياط الحديد.

«وروي أن رجلاً قصدهما لتعلم السحر، فوجدهما معلقين بأرجلهما، مزرقة أعينهما، مسودة وجوههما، ليس بين ألسنتهما وبين الماء إلا أربعة أصابع، وهما يعذبان بالعطش، فلما رأى ذلك هاله مكانهما، فقال: لا إله إلا الله، فلما سمعا كلامه، قالا: لا إله إلا الله من أنت؟ قال: رجل من الناس، قالا له: ومن أى أمة أنت؟ قال: من أمة محمد ﷺ، قالا: أو بعث محمد ﷺ؟ قال: نعم، فحمداً الله تعالى، وأظهرا الاستبشار، فقال الرجل: ومِمَّ استبشاركما؟ قالا: إنه نبي الساعة، وقد دنا انقضاء عذابنا.

وروى هشام عن عائشة أنها قالت: قدمت امرأة من دومة الجندل، جاءت تبغى رسول الله ﷺ بعد موته، تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر وما تعمل به، فقالت عائشة لعروة: يابن أحمق، فرأيتها تبكى حين لم يجد رسول الله ﷺ، فكانت تبكى حتى رحمتها، ثم قالت: إني أخاف أن أكون قد هلكت، ثم قالت: كان لى زوج غاب عني، فدخلت على عجوز، فشكوت لها ذلك، فقالت: إن فعلت ما أمرك به جعلته يأتك، فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين، فركبت أحدهما وركبت هي الآخر، فلم يكن كثير حتى وقفنا ببابل، وإذا برجلين معلقين بأرجلهما، فقالا: ما جاء بك؟ فقلت: أتعلم السحر، فقالا: إنما نحن فتنة فلا تكفرى، فارجمى من حيث أتيت، فقلت: لا، قالا: فاذهبى إلى ذلك التور فبولى عليه، فذهبت لأبول ففرغت فلم أفعل، فرجعت، فقالا: أفعلت؟ قلت: نعم، فقالا هل رأيت شيئاً؟ فقلت: لم أر شيئاً، فقالا: لم تفعلى شيئاً، فارجمى إلى بلادك ولا تكفرى، فأبيت، فقالا: إذهبي إلى ذلك التور فبولى فيه، فذهبت فاقشعر جلدى وخفت، ثم رجعت إليهما فقلت: قد فعلت، فقالا: ما رأيت؟ فقلت: لم أر شيئاً، قالا: كذبت، لم تفعلى، فارجمى إلى بلادك ولا تكفرى، فإنك على رأس أمرك، فقلت: لا، فقالا لى: إذهبي إلى ذلك التور فبولى فيه، فذهبت فبليت فيه، فرأيت فارساً مقنعاً بحديد، خرج منى وذهب في السماء فلم أره، قالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك فاذهبى، فقالت المرأة: والله ما أعلم شيئاً ولا قال لى شيئاً، فقالا: لا تريدن شيئاً إلا كان، خذى هذا القمح فابذريه فيذرته، ثم قلت له: إطلع بطلع، فقلت له: إنحصد فحصد، فقلت: انفرك ففرك، ثم قلت: انطحن فطحن، ثم قلت: اغبى فخبز. فلما رأيت أنى لا أريد شيئاً إلا كان سَقَطَ في يدى فرجعت وندمت، والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئاً قط ولا أفعله أبداً.

قال الأوزاعي: بلغنى أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: يا جبريلُ صِفْ لِي النَّارَ، فقال: إن الله تعالى أمر بها، فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أوقد عليه ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة، لا يطفأ جمرها، ولا يحمد لهبها، والذي بعثك بالحق لو أن ثوباً من ثياب أهل النار ظهر لأهل الأرض لماتوا جميعاً، ولو أن ذنوباً من شرابها صب في ماء الأرض جميعاً لقتل من ذاقه ولو أن حلقة من السلسلة التي ذكرها الله وضعت على جبال أهل الأرض جميعاً لذابت وما استقلت، ولو أن رجلاً دخل النار وخرج لمات أهل الأرض من تن ريمه، وتشويه خلقه وعظمه، فيكى النبي ﷺ، ويكى جبريل لبيكاته، وقال: أتبكي يا محمد وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلاً أكون عبداً شكوراً، ويكى جبريل، فقال: يا جبريلُ أتبكي وأنت الروحُ الأمينُ، أمينُ الله على وحيه؟ قال: أخاف أن أبلى بما أبلى به هاروت وماروت، فهذا الذي منعى من-

أتى إليهما ليتعلم منهما السحر، فهياه أشد النهى، وقال له: ﴿ إِنَّمَا مَحْنُ فِتْنَةٍ ۖ فَلَا تَكْفُرْ ۗ ﴾، وأقاما عليه الحجة بذلك، حتى إذا أصر على تعلم السحر منهما، فيكون قد هلك عن بيعة.

قرأ الحسن: مَلَكَيْنِ، بكسر اللام، وهو مروى أيضاً عن الضحاك وابن عباس، ثم اختلفوا، فقال الحسن: كانا عجلين أقفلين ببابل يعلمان الناس السحر، وقيل: كانا رجلين صالحين من الملوك.... واحتجوا على ذلك بوجوه:

أحدها: أنه لا يليق بالملائكة تعليم السحر.

ثانيها: كيف يجوز إنزال المَلَكَيْنِ مع قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨]

ثالثها: لو أنزل المَلَكَيْنِ لكان إما أن يجعلهما في صورة الرجلين أو لا يجعلهما كذلك، فإن جعلهما في صورة الرجلين، مع أنهما ليسا برجلين، كان ذلك تجهيلاً وتليساً على الناس، وهو غير جائز، ولو جاز ذلك، فلم لا يجوز أن كل واحد من الناس الذين نشاهدهم، لا يكون في الحقيقة إنساناً، بل ملكاً من الملائكة؟ وإن لم يجعلهما في صورة الرجلين، قدح ذلك في قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾ [الأنعام: ٩]<sup>٩١</sup>

وبعيداً عن الخرافات والأساطير التي نسجها الفكر الإسلامى حول هذه القصة نقول:

صدَّق اليهود ما أشاعته الشياطين - وهم شياطين الإنس كما ذهب إلى

= اتكال على مزلقى عند ربى، فأكون قد أمنت مكرهاً، فلم يزالا يبيكان حتى نوديا من السماء: يا جبريل ويا محمد! إن الله قد أنكحنا من غضبه فلا يعذبكما، وإن فضل محمد ﷺ على سائر الأنبياء كفضل جبريل على

سائر الملائكة. [الثعلبي ص ٥٠ - ٥٤]

(٩١) ذكر الرازى ردود من ذهب إلى أنهما كان مَلَكَيْنِ، انظر ج ٣ ص ١٩٨ - ١٩٩.

ذلك المعتزلة - على سليمان؛ فهي أكاذيب لفقوها للطعن على ملكه. واعتمد من قال: إنهم من الإنس وليسوا من الجن على رواية تبين أن سليمان " كان قد دفن كثيراً من العلوم التي اختصه الله تعالى بها تحت سرير ملكه، حرصاً على أنه إن هلك الظاهر منها، يبقى ذلك المدفون، فلما مضت مدة على ذلك، توصل قوم من المنافقين إلى أن كتبوا في خلال ذلك أشياء من السحر، تناسب تلك الأشياء من بعض الوجوه، ثم بعد موته، واضطلع الناس على تلك الكتب، أو هموا الناس أنه من عمل سليمان، وأنه ما وصل إلى ما وصل إليه إلا بسبب هذه الأشياء، فهذا معنى: ﴿ مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ ﴾<sup>١٠٢</sup>، واحتج القائلون بهذا الوجه على فساد من قال بأن المقصود في الآية هم شياطين الجن، بأن شياطين الجن لو قدروا على تغيير كتب الأنبياء وشرائعهم بحيث يبقى ذلك التحريف فيما بين الناس، لارتفع الوثوق عن جميع الشرائع، وذلك يفضي إلى الطعن في كل الأديان. فإن قيل: إذا جوزتم ذلك على شياطين الإنس، فلم لا يجوز مثله على شياطين الجن؟ قلنا: الفرق أن الذي يفعله الإنسان لا يد وأن يظهر من بعض الوجوه، أما لو جوزنا هذا الافتعال من الجن، وهو أن نزيد في كتب سليمان بخط مثل خط سليمان، فإنه لا يظهر ذلك ويبقى مخفياً، فيفضي إلى الطعن في جميع الأديان.<sup>٩٢</sup>

وعليه، فهي إشاعة بثها منافقون وصدقها اليهود؛ فقد أكد القرآن الكريم عدم صحتها بقوله: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ ﴾، وهذا التعبير يحمل معنيين:  
**الأول:** أن سليمان لم يباشر هذا العمل الخداعي، وهو السحر.  
**الثاني:** أن من يباشر السحر الذي هو خداع لا حقيقة له، يعتبر كافراً، لأنه

يلبس الحق بالباطل، ويزعم قلب حقائق الأشياء، وهو غير صحيح. فهم يعلمون الناس الوهم والخداع، ويعينونهم على ما يضلون به عقول العامة، فيخضعوهم لأهوائهم، فلا يتصرفون إلا طبقاً لما يملونه عليهم، فهم يتصرفون في حياتهم حسب أوامر السحرة والدجالون لهم، ويطيعون من يدعى أنه على صلة بالجان، لأنه - في زعمهم - قادر على تحقيق كل ما يريده ويتغيه.

أما ما يتعلق بهاروت وماروت، فإن كانا مَلَكَين، فلا يمكن أن يكون ما نزل عليهما هو السحر، لأن المتزل هو الله، وذلك غير جائز، لأن السحر كفر وعبث، ولا يليق بالله إنزال ذلك، فإذا كانا يعلمان الناس ما أنزل عليهما، فهو تعليم كيفية خداع السحر الناس، فإذا علم الناس حقيقة السحرة في الخداع، انصرفوا عنهم ولم يصدقوهم، يؤيد ذلك ما تلا ذلك من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَخَّنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾، أى أننا نعلمك أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو خداع، حتى تحصن نفسك من الوقوع في حبال هؤلاء السحرة، فإذا تعلمت ذلك فلا تباشر عملهم بعد أن نعلمك هذه الطريقة، فهى اختبار لك، فإن عرفت الخدعة، ولم تباشر هذا العمل، فقد نجحت في الاختبار، أما إذا باشرت عمل الساحر، بعد أن علمناك الطريق لتحصين نفسك من الخداع، فقد سقطت في الاختبار، فإياك أن تباشر هذا العمل، ويكفيك أنك عرفت مغزى خدعة هؤلاء السحرة.

أما إذا أخذنا قراءة الحسن، والضحاك، وابن عباس بأثما مَلَكَين بكسر اللام، فهما كما قيل: كان هاروت وماروت رجلين صالحين من الملوك يعلمان الناس ما يحصنهم من خداع السحرة وضلال الدجالين، ولذلك كانا يقولان لمن يعلمانهم: ﴿ إِنَّمَا مَخَّنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾، أى لا تفعل ما يفعله السحرة بعد أن علمناك هذه الطريقة.

وجدير بالذكر أن التفريق بين الزوجين لا يحتاج إلى سحر ولا إلى أعمال سفلية كما يشاع بين الناس، ولكن يمكن التفريق بينهما بالنميمة، ونقل الأخبار المُنْفَرَّة من طرف إلى الطرف الآخر، الأمر الذي يغرس الضغينة في نفسيهما فيؤدى ذلك إلى الفرقة، وذلك معروف للكافة في كل المجتمعات الإنسانية.

ثم نصت الآية على أن الضرر لا يصل إلى أحد إلا بإذن الله تعالى، أى أن الضرر الحاصل عندما يحصل بعد الخلد والذجل، إنما يحصل بخلق الله وإيجاده وإبداعه، وما كان كذلك، فإنه يصح أن يضاف إلى إذن الله تعالى كما قال في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠].

## هل سحر النبي ﷺ؟

يرى كثير من علماء الفكر الإسلامى أن لبيد بن الأعصم سحر النبي ﷺ وذلك استناداً إلى حديث ورد في كتب السنة ونصه: قال البخارى فى صحيحه: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا عيسى بن يونس، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة رضى الله عنها قالت سحر رسول الله ﷺ رجل من بنى زُرَيْق، يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيّل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم، أو ذات ليلة، وهم عندي، لكنه دعا ودعا، ثم قال: يا عائشة! أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوع، قال: من طبعه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: فى أى شيء؟ قال: فى مُشطٍ ومُشاطة، وجُفٍّ طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: فى بئر ذُرْوَان. فأتاها رسول الله ﷺ فى ناس من أصحابه فجاء، فقال: " يا عائشة! كأن ماءها ثقاعة لحناء، وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين"، قلت: يا رسول الله! أفلا استخرجته؟ قال: " قد عافاني الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً، فأمر بها فدُفنت".

وقال البخارى: وحدثني عبد الله بن محمد قال: سمعت ابن عيينة يقول: أول من حدثنا به ابن جريج، يقول: حدثني آل عروة، فسألت هشاماً عنه، فحدثنا عن أبيه، عن عائشة رضى الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ سحر، حتى كان يرى أنه يأتى النساء، ولا يأتينهن، قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا وكذا، فقال: يا عائشة! أعلمت أن الله قد أفتاني فيما

استفتيته فيه؟ ثم ساق البخارى الحديث باللفظ السابق.<sup>٩٣</sup>

وقد طعن قوم في هذا الحديث بدعوى أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع، لأنه إذا خيّل إليه ﷺ أنه يفعل الأمر وهو لم يفعله، أمكن أن يخيل إليه أنه أوحى إليه وهو لم يوح إليه، وأنه بلغ ما أوحى إليه وهو لم يبلغه، فلا يكون في فعله ولا قوله حجة، ثم لو قلنا بصحة الحديث لوافقنا المشركين في دعواهم أن النبي ﷺ كان مسحوراً، كما حكى الله عنهم بقوله تعالى: ﴿إِذ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ٤٧]، وقوله: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨]

وبهذه الشبه التي أثارها هؤلاء، ردوا الحديث وطعنوا فيه - بالرغم من وروده في الصحيحين - فلم يطعنوا فيه من ناحية السند، بل من جهة العقل، ثم جاءوا بشبهة أخرى، لكي يردوا بها الحديث، وهي قولهم: إن الحديث على فرض صحته، فهو آحاد، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد، وعصمة النبي من تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد، لا يؤخذ في نفيها عنه إلا باليقين، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون<sup>٩٤</sup>، فهذه هي الشبهات التي أثارها الطاعنون في حديث السحر.<sup>٩٥</sup>

٩٣ ( فتح البار ج ١٠ ص ٢٢١، و ٢٣٢، وكذلك رواه مسلم في صحيحه ١٧٤/١٤، وأحمد في مسنده ٦٣/٦.

٩٤ ( ومن المعاصرين الذين أنكروا الحديث بهذه الشبهات: الشيخ محمد عبده في تفسيره لجزء عم، وسيد قطب في الظلال، وغيرها من تأثرهما بما قالا، وقال الدكتور أحمد شلبي: إن حديث السحر هو من الإسرائيليات التي أدخلت على البخارى، وأنا أوقفه في ذلك.

٩٥ ( بيومي ص ٥٤ - ٥٥، ثم ذكر أجوبة القائلين بصحة الحديث على أسباب رفض الرافضين لهذا الحديث، فليرجع إليها من شاء في ص ٥٥ وما بعدها.

## ذو القرنين

ذو القرنين: اسم شخص ورد في القرآن الكريم كملك عادل بنى سداً يدفع به أذى يأجوج ومأجوج عن إحدى الأقوام، ولا تعرف هويته على وجه الدقة، فقد قيل: إنه الإسكندر الأكبر، وقيل: إنه كورش الكبير، وثمة دراسة حديثة تقول: إنه أختاتون، الفرعون المصري، بينما رأى آخرون أنه ملك عربي ممن عاشوا قبل الإسلام، وهناك من يرى من غير المسلمين: أنه شخصية أسطورية، ويستندون في ذلك على عدم وجود أى دليل تاريخي ملموس يناسب حجم إنجازات مثل هذه الشخصية العظيمة المفترضة.

وتكمن مشكلة عدم تحديد شخصيته تاريخياً: أن هناك أكثر من واحد يحمل نفس الاسم، وكلهم حكموا مساحات شاسعة على الأرجح، ولكن الراجح في هذه المسألة: أنه الإسكندر ابن فيليبس المقدوني، لأن كتب التاريخ العربي تقول: إنه عاصر أرسطو، وعلى أى الأحوال فالمشهور أنه كان عبداً حكم مساحات شاسعة من أقطار الكرة الأرضية، ويحكى القرآن الكريم قصته، فيذكر أنه بدأ التجوال بجيشه في الأرض، فاتجه غرباً حتى وصل إلى عين حمئة، ثم توجه شرقاً حتى وصل لمنطقة، اختلف الناس فيها، فقيل عنها: إنه، إما أن تكون وقت طلوع الشمس، أو مكان شروق الشمس، يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۗ <sup>(٨٢)</sup> إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَانْتَهَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا <sup>(٨٤)</sup> فَأَتْبَعَ سَبِيلًا <sup>(٨٥)</sup> حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا <sup>(٨٦)</sup> قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا <sup>(٨٧)</sup> وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا <sup>(٨٨)</sup> ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيلًا <sup>(٨٩)</sup>

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾  
 كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أُنْبِئْ سَبِيًّا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ وَجَدَ  
 مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَنْذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ  
 مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي  
 فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَأَتُونِي زُبُرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا  
 سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾  
 فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نُقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ  
 وَعَدْرِي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ [الكهف: ٨٣ - ٩٨]

لم يذكر القرآن الكريم اسمه، ولم يحدد لنا زمانه، لأنه لم يؤرخ لهذه الشخصية؛ فهو ليس كتاب تاريخ، ولا سجلاً لأحداث من - وما مضى -، بل كتاب وعظ وهداية، يستخدم الأسلوب المقنع للمعارضين بصرف النظر عن كونه موافقاً لما حدث أم لم يتفق مع ما وقع في سالف العصر والزمان، ولذا جاء ما حكاه موافقاً لما يعتقد اليهود، فهو إجابة عن سؤال توجه به المشركون من أهل مكة، بإيعاز من اليهود إلى النبي ﷺ ليعرفوا: أمن الأنبياء هو أم من المتنبئين؟ ويذكر العلماء أن المشركين حينما رجعوا من المدينة، أو من عند اليهود إنما رجعوا ومعهم المقياس الذي يقيسون به صدق نبوة النبي وصحة رسالته، ولم يكن هذا المقياس إلا الإجابة عن الأسئلة.

هنا نستطيع أن نسأل هذا السؤال: ما الإجابة التي يتوقع المتوقع أن يترل بها الوحي من السماء، ليثبت نبوة النبي وصدق رسالته؟ أهى الحقيقة التاريخية عن ذى القرنين، أم هى الإجابة التى ذكرها اليهود من أهل المدينة للمشركين من أهل مكة، وجعلوها المقياس الذى يقاس به أمر النبي ﷺ؟ ليس من شك فى أن الله ﷻ قد أراد بالعدول عن الأخبار الصحيحة أمراً،

وليس هذا الأمر إلا صدق النبي ﷺ، والدلالة على أن الوحي يتزل عليه من السماء، وأن هو الذي أخبر النبي ﷺ عما قاله اليهود للمشركين من قريش.<sup>٩٦</sup> لم يتحدث القرآن الكريم عن ذى القرنين إلا في حدود الإجابة عن الأسئلة التي لقتها اليهود لمشركي مكة وأوعزوا لهم أنه إن لم يجبههم بما يعرفه اليهود عن هذه الشخصية فليس بنبي، ولهذا لم تتطرق الإجابة إلى ما يتجاوز معرفة اليهود بذى القرنين، ولذا نسج الفكر الإسلامي أساطير حوله: كنيته، سبب بسط سلطانه على هذه الأقطار، وذكروا أحداثاً وآراء حول أبيه وأمه وغير ذلك من الأمور التي تتصل بحياته ووضعه بين قومه.<sup>٩٧</sup> غير أننا نرى أن من الأقدمين من أجاز أن تكون هذه الصورة التاريخية صوراً

٩٦ ( خلف الله ص ٢٤، ١٧٥ .

٩٧ ( قالوا: هو الإسكندر بن فيليب بن بطربوس بن هرمس بن هردوس بن منطون بن رومي بن لطين بن يونان بن يافث. ويقال: نسبة ينتهي إلى العيص بن إسحاق بن خليل الرحمن ﷺ. وزعم بعض القدماء أن الإسكندر هو أخو دارا بن دارا.....واختلفوا في تسميته بذى القرنين، فقال بعضهم: سمي بذلك لأنه ملك الروم وفارس، وقيل: لأنه كان في مقدم رأسه شبه القرنين من اللحم، وقيل: لأنه رأى في المنام كأنه أخذ بقرق الشمس..... قيل: إنه سار بجيشه نحو بلاد دارا، فالتقى بناحية خراسان مما بين الخزر واقتتل أشد القتال وصارت الدائرة على جند دارا... وقتل دارا... قال العلماء بأخبار القدماء: لما قتل لإسكندر دارا ملك البلاد ودانت له العباد، فهدم ما كان في بلاد فارس من بيوت النيران، وما كان بأرض الهند من بيوت الأوثان، وقتل الوايزة وأحرق كتبهم، ودعا الناس إلى الإسلام والتوحيد..... واختلف العلماء في نبوته، فروى عن النبي ﷺ أنه قال: " لا أدرى أكان ذوالقرنين نبياً أم لا؟ "..... ثم اختلفوا بعد فيه، فقال قوم: لم يكن نبياً، وإنما كان عبداً صالحاً ومملكاً عادلاً فاضلاً، وقال آخرون: بل كان نبياً غير مرسل، والصحيح إن شاء الله أنه كان نبياً غير مرسل.... وأنشدوا ما قال تميم:

قد كان ذوالقرنين قبلي مسلماً      ملكاً تدين له الملوك وتسجد  
بلغ المشارق والمغرب يستغنى      أسباب أمر من حكيم مرشد  
فأرى مغيب الشمس عند غروبها      في عين ذى خُلب ووثاط حرم

[ اقرأ تفاصيل الأساطير حول هذه النقاط وغيرها من أخبار ذى القرنين عند الثعلبي ص ٣٥٩ - ٣٧٠ .

لما يعرفه أهل الكتاب عن ذى القرنين، وفسر الآيات تفسيراً معقولاً بعيداً عن الخرافات والأساطير؛ فقد جاء في الرازى بصدد حديثه عن ذى القرنين مايلي: أعلم أن المعنى المراد أنه أراد بلوغ المغرب، فاتبع سبباً يوصله إليه حتى بلغه، أما قوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، ففيه مباحث:

البحث الأول: قرأ عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: في عين حامية، بالألف من غير همزة، أى غير حارة. وعن أبي ذر قال: كنت رديف رسول الله ﷺ على جمل، فرأى الشمس حين غابت، فقال، أتدرى يا أبا ذر، أين تغرب الشمس هذه، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تغرب في عين حامية. وهى قراءة ابن مسعود وطلحة وابن عامر، والباقون: حمئة، وهى قراءة ابن عباس.<sup>٩٨</sup>

واتفق أن ابن عباس كان عند معاوية، فقرأ معاوية: حامية، بألف، فقال ابن عباس: حمئة، فقال معاوية لعبد الله بن عمر: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين. ثم وجهه إلى كعب الأحبار: كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: في ماء وطين، كذلك نجد في التوراة.

والحمئة: ما فيه ماء وحمأة سوداء. واعلم أنه لا تنافي بين الحمئة والحامية لجواز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعاً.

البحث الثاني: أنه ثبت بالدليل أن الأرض كروية، وأن السماء محيطة بها، ولاشك أن الشمس في الفلك، وأيضاً قال: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾، ومعلوم أن جلوس قوم في قرب الشمس غير موجود، وأيضاً الشمس أكبر من الأرض. عمرات كثيرة، فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض.

٩٨ ( روى الرازى هذا الحديث في التفسير الكبير جـ ٢١ ص ١٤١ - ١٤٢، ولكنى لم أعر على قوله: " فإنها تغرب في عين حامية " في أى كتاب من كتب الحديث.

إذا ثبت هذا، فنقول: تأويل قوله: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ من وجوه:  
 الأول: أن ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب، ولم يبق بعده شيء من  
 العمارات، وجد الشمس كأنها تغرب في عين، وهذه مظلمة، وإن لم تكن  
 كذلك في الحقيقة، كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر،  
 إذا لم يرَ الشط، وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر.  
 هذا هو التأويل الذي ذكره أبو علي الجبائي في تفسيره.

الثاني: أن للجانب الغربي من الأرض مساكن يحيط البحر به، فالناظر إلى  
 الشمس يتخيل كأنها تغيب في تلك البحار، ولاشك أن البحار الغربية قوية  
 السخونة، فهي حامية، وهي أيضاً حمئة، لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء  
 والماء، فقوله: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ إشارة إلى أن الجانب الغربي من  
 الأرض قد أحاط به البحر، وهو موضع شديد السخونة.

الثالث: قال أهل الأخبار: إن الشمس تغيب في عين كثيرة الماء والحمأة،  
 وهذا في غاية البعد، وذلك لأننا إذا رصدنا كسوفاً قمرياً، فإذا اعتبرناه، ورأينا  
 أن المغربيين قالوا: حصل هذا الكسوف في أول الليل، ورأينا المشرقيين قالوا:  
 حصل في أول النهار، فعلمنا أول الليل عند أهل المغرب، هو أول النهار الثاني  
 عند أهل المشرق، بل ذلك الوقت الذي هو أول الليل عندنا، فهو وقت العصر  
 في بلد، ووقت الظهر في بلد آخر، ووقت الضحوة في بلد ثالث، ووقت طلوع  
 الشمس في بلد رابع، ونصف الليل في بلد خامس. وإذا كانت هذه الأحوال  
 معلومة بعد الاستقرار والاعتبار ليس هناك تضارب، فهي تغيب في الطين  
 والحمأة، وتختفي عن الطين والحمأة، كما ثبت من العلوم الفلكية والجغرافية،  
 وعلمنا أن الشمس طالعة ظاهرة في كل هذه الأوقات، كان الذي يقال: إنها  
 تغيب في الطين والحمأة كلاماً على غير اليقين، وكلام الله تعالى مبرأ عن هذه

التهمة، فلم يبق إلا التأويل الذي ذكرناه.<sup>٩٩</sup>

وواضح من هذا النص: أن الرازي يرى أن التأويل في هذه المسألة من الأمور الضرورية، ليرأ كلام الله من أن يكون على خلاف اليقين: كما يرى ذلك أيضاً النيسابوري وأبو حيان التوحيدي في تفسيرهما لهذه القصة.

إن الذي دفع المتأخرين من أمثال الرازي إلى هذا التأويل إنما هو الكشف العلمي عن الكون وحقائقه، والتاريخ ووقائعه، وإن تاريخ المسألة في حياة النبي ﷺ وموقف المشركين واليهود منه، وتوجيههم إليه الأسئلة على أن تكون الإجابة كما يعرفون، هو الذي يضطرنا إلى أن نذهب ما ذهبنا إليه من أن هذه القصة تصور المعارف التاريخية والكونية عند أهل الكتاب، وعند المشركين من الذين يعاصرون النبي. وإن تاريخ المسألة في كتب التفسير القديمة كالطبري والكشاف، ووقوفهم عند أمثال هذه الحقائق التي تروى عن النبي ﷺ، وعن كعب الأبحار تدل على أن هذا الرأي هو الرأي السائد في هذا المجال..... إن التأويل كان أمراً ضرورياً، وواجباً دينياً عند الرازي، ومن جاء بعده، لأن الكشف العلمي هو الذي اضطرهم إلى هذا.

وإن تاريخ المسألة يدل على أننا لا نحتاج إلى مثل هذا التأويل إذا فهمنا القصة على حقيقتها، وعرفنا القصد الذي يرمى إليه القرآن، وهو أن محمداً ﷺ نبي ويتزل عليه الوحي، وأنه الذي أخبره بالإجابة عن تلك الأسئلة التي وجهت إليه من مشركي مكة، وأن هذه الإجابة قد وردت كما أخبر اليهود أهل مكة.<sup>١٠٠</sup>

اتبع القرآن الكريم نفس المنهج في الرد على سؤالهم عن قصة أصحاب الكهف، يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا

٩٩ ( الرازي ج ٢١ ص ١٤١ - ١٤٢ .

١٠٠ ( قارن خلف الله ص ١٧٧ - ١٧٨ .

وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْنَا بَنِيانًا  
 رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾  
 سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا  
 بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ  
 إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا  
 تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَآذُكَرَ رَبِّكَ إِذَا  
 نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَّبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا ﴿٢٤﴾ وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ  
 ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غَيْبٌ  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ  
 فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ [الكهف: ٢١ - ٢٦]

فالقرآن يصور في الإخبار بهذه القصة آراء أهل الكتاب فيها، وليس الحقيقة  
 التاريخية، يدل على ذلك ما يذكره من عبارات تدل على ذلك، مثل قوله  
 تعالى: ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾ وقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ ﴾، ومن هنا  
 أيضاً طلب القرآن إلى النبي ﷺ ألا يمارى فيهم، وألا يستفتى فيهم أحداً:  
 ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾.

جاء في الطبري بصدده حديثه عن عدد الفتية ما يلي: ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ  
 بِعِدَّتِهِمْ ﴾، يقول عز ذكره لنبية محمد ﷺ: قل يا محمد لقائلي هذه الأقوال في  
 عدد الفتية من أصحاب الكهف رجماً منهم بالغيب: ﴿ رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾،  
 يقول: ما يعلمه إلا قليل من خلقه... قوله: ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ  
 أَحَدًا ﴾، يقول تعالى ذكره: ولا تستفت في عدة الفتية من أصحاب الكهف  
 منهم - يعني من أهل الكتاب - أحداً، لأنهم لا يعلمون عدتهم، وإنما يقولون  
 فيهم رجماً بالغيب، لا يقيناً من القول.

وجاء في الطبرى بصدد حديثه عن المدة: " ولبثوا... إلخ " : اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ فقال بعضهم: ذلك خير من الله تعالى ذكره عن أهل الكتاب أنهم يقولون ذلك كذلك، واستشهدوا على صحة قولهم ذلك بقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾، وقالوا: لو كان خيراً من الله عن قدر لبثهم في الكهف، لم يكن لقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ وجه مفهوم، وقد أعلم الله خلقه مبلغ لبثهم فيه وقدره..<sup>١٠١</sup>

وهكذا ترى أن من الأقدمين من أجاز أن تكون هذه الصورة التاريخية صوراً لما يعرفه أهل الكتاب عن قصة أصحاب أهل الكهف، ومعنى ذلك أن القرآن الكريم يصور في بعض قصصه اعتقاد المعاصرين أو المخاطبين.

وهذا الرأي هو الذي اعتمد عليه الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الوهاب النجار في رده على المستشرقين الذين كتبوا مادة أصحاب الكهف من دائرة المعارف الإسلامية، فقد قال رحمه الله: الذي ألاحظه أن عبارة دائرة المعارف الإسلامية كعبارة أكثر المفسرين: تعتبر أن قوله تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ خير عن مدة مكث أهل الكهف في كهفهم، منذ دخلوه إلى أن استيقظوا. ولكني أفهم غير ذلك، وأقول: إن قوله: " ولبثوا... إلخ " معمول لقوله: ﴿ ثَلَاثَ مِائَةٍ ﴾، فهو من مقول السائلين، وليس خيراً من الله تعالى، ولذا أتبع ذلك القول بقوله: ﴿ قُلِ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾. وعلى ذلك فالقرآن لم ينص على عدد أهل الكهف، ولا على المدة التي مكثوها فيه قبل أن يعثر عليهم، بل أمر الله رسوله أن يقول: ﴿ رَبِّيَ

﴿أَعْلَمُ يَعِدَّتِهِمْ﴾ وأن يرد عليهم حين يقولون: ﴿وَلَيْشُوا فِي كَهْفِهِمْ... إلخ﴾ بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْشُوا﴾ وقد ورد هذا القول عن ابن عباس. وأعتقد أن السر في هذه المسألة واضح بيّن، فالقوم يسألون النبي عن عدد، وعن المدة، وقد جعلوا آراء اليهود مقياساً يقيسون به صدق النبي ﷺ، ولو نزل القرآن بغير هذه الآراء، وبخلاف هذا المقياس، لكذبوا النبي، ولما آمنوا به أو بالقرآن.

إن إخبار القرآن بهذه الآراء هو الدليل على أن الوحي ينزل على النبي ﷺ من السماء، ومن هنا كانت أمثال العبارات السابقة: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا لَيْشُوا﴾ ﴿أَمْرًا وَاجِبًا، إذ لولاها لآمن الناس بأن هذا هو رأى القرآن في المسألة، وعندئذ تقوم هذه المشكلات التي أوردها المستشرقون، اعتراضاً على القرآن، ودافع عن القرآن الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الوهاب النجار. ١٠٢

obeikandi.com

## أصحاب الأخدود

إنها قصة فتى، آمن، فصبر وثبت، فأمنت معه قريته:

لقد كان غلاماً نبيهاً، ولم يكن قد آمن بعد، وكان يعيش في قرية، ملكها كافر يدعى الألوهية، وكان للملك ساحر يستعين به، وعندما تقدم العمر بالساحر، طلب من الملك أن يبعث له غلاماً يعلمه السحر ليحل محله بعد موته، فاختير هذا الغلام وأُرسل إلى الساحر.

فكان الغلام يذهب للساحر ليتعلم منه، وفي طريقه كان يمر براهب، فجلس معه مرة وأعجبه كلامه، فصار يجلس مع الراهب في كل مرة يتوجه فيها إلى الساحر، وكان الساحر يضربه إن لم يحضر، فشكى ذلك للراهب، فقال له الراهب: إن خشيت الساحر، فقل له: حبسني أهلي، وإن خشيت أهلك، فقل لهم: حبسني الساحر.

وكان في طريقه في أحد الأيام، فإذا بحيوان عظيم يسد طريق الناس، فقال الغلام في نفسه: اليوم أعلم أيهما أفضل؟ الساحر أم الراهب؟ ثم أخذ حجراً وقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس، ثم رمى الحيوان فقتله، ومضى الناس في طريقهم. فتوجه الغلام إلى الراهب وأخبره بما حدث، فقال له الراهب: يا بني! أنت اليوم أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإذا ابتليت، فلا تدل على.

وكان الغلام بتوفيق الله يرى الأكمه والأبرص، ويعالج الناس من جميع الأمراض، فسمع به أحد جلساء الملك، وكان قد فقد بصره، فجمع هدايا كثيرة وتوجه بها إلى الغلام، وقال له: أعطيك جميع هذه الهدايا إن شفيتني، فأجاب الغلام: أنا لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله تعالى، فإن آمنت بالله شفاك،

فأمن جليس الملك، فشفاه الله تعالى.

فذهب جليس الملك إلى مجلس الملك، وقعد بجوار الملك كما كان يقعد قبل أن يفقد بصره، فقال له الملك: من ردّ عليك بصرك؟ فأجاب الجليس بثقة المؤمن: ربي، فغضب الملك، وقال: أو لك رباً غيري؟ فأجاب المؤمن دون تردد: ربي وربك الله. فثار الملك، وأمر بتعذيبه، فلم يزالوا يعذبونه حتى دل على الغلام.

أمر الملك بإحضار الغلام، ثم قال له مخاطباً: يا بني! لقد بلغت من السحر مبلغاً عظيماً، حتى أصبحت ترى الأكمة والأبرص، وتفعل، وتفعل، فقال الغلام: إني لا أشفى أحداً، إنما يشفى الله تعالى، فأمر الملك بتعذيبه، فعذبه حتى دل على الراهب.

فأحضِرَ الراهب وقيل له: ارجع عن دينك! فأبى الراهب ذلك، فجيء بمنشار ووضع على مفرق رأسه، ثم نُشِرَ فوق نصفين، ثم أُحضِرَ جليس الملك، وقيل له: ارجع عن دينك! فأبى، ففُعلَ به كما فُعلَ بالراهب، ثم جيء بالغلام، وقيل له: ارجع عن دينك! فأبى الغلام. فأمر الملك بأخذ الغلام لقمة جبل، وتخييره هناك، فإذا أن يترك دينه أو أن يطرحوه من قمة الجبل.

فأخذ الجنود الغلام وصعدوا به اجبى، فدعا الفتى ربه: اللهم أكفينيهم بما شئت! فاهتز الجبل وسقط الجنود. ورجع الفتى يمشى إلى الملك، فقال الملك: أين من كانوا معك؟ فأجاب: كفانيهم الله تعالى. فأمر الملك جنوده بحمل الغلام في سفينة والذهاب به وسط البحر، ثم تخييره هناك بالرجوع عن دينه، أو إلقائه في البحر.

فذهبوا به، فدعا الغلام الله: اللهم أكفينيهم بما شئت. فانقلبت بهم السفينة، وغرق من كان عليها إلا الغلام. ثم رجع إلى الملك، فسأله الملك باستغراب:

أين من كان معك؟ فأجاب الغلام المتوكل على الله: كفانيهم الله تعالى، ثم قال للملك: إنك لن تستطيع قتلى حتى تفعل ما أمرك به، فقال الملك: ماهو؟ فقال الفتى المؤمن: أن تجمع الناس في مكان واحد، وتصلبني على جذع، ثم تأخذ سهماً من كنانتي، وتضع السهم في القوس، وتقول: باسم الله رب الغلام، ثم ارمي، فإن فعلت ذلك قتلتني.

استبشر الملك بهذا الأمر، فأمر على الفور بجمع الناس، وصلب الفتى أمامهم، ثم رماه، فأصابه فقتله.

فصرخ الناس: آنا برب الغلام. فهرع أصحاب الملك إليه، وقالوا: أ رأيت ماكنت تحشاه! لقد وقع، لقد آمن الناس.

فأمر الملك بحفر شق في الأرض، وإشعال النار فيها، ثم أمر جنوده بتخيير الناس، فإذا الرجوع عن الإيمان، أو إلقائهم في النار، ففعل الجنود ذلك، حتى جاء دور امرأة ومعها صبي لها، فخافت أن تُرْمَى في النار، فألهم الله الصبي أن يقول لها: يا أماه! اصبري! إنك على الحق.<sup>١٠٣</sup>

هذا ما ورد في التراث الشعبي الديني عن أصحاب الأخدود، وهو مليء بالصور الأسطورية، والأحداث الخرافية، التي لا يقبلها منطق، ولا يستسيغها عقل، ولا يقرها أى مبدأ من مبادئ التاريخ الديني عبر العصور، وسوف نبين جانباً من ذلك فيما يلي:

١. ظهور المعجزة على يد الفتى، وذلك بإبراء المرضى، أمر موغل في دهاليز الأسطورة، لأن المعجزة لاتظهر إلا على يد نبي لإثبات أنه مرسل من الله، فهل كان الفتى مرسل من الله؟ ولِمَنْ؟ أضف إلى ذلك أن المعجزة

لا تظهر على يد النبي إلا مرة واحدة لإفحام من أرسل إليهم؛ فموسى عليه السلام لم يبطل السحر إلا مرة واحدة أمام الجموع التي جمعها فرعون يوم الزينة، فلم يثبت أن موسى عليه السلام كان يسير في ربوع مصر ليبطل عمل السحرة فيها. كذلك معجزة عيسى عليه السلام لم تكن عملاً مستمراً لإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فلم يثبت أنه قد أبرأ كل المرضى في زمنه، ولكن المعجزة ظهرت على يديه لإثبات أنه مرسل من الله، ولم تكن هناك معجزة دائمة إلا القرآن الكريم، لأن إعجازه نابع من صياغته على وجه يعجز أصحاب البيان أن يأتوا بمثله، والصياغة باقية إلى يوم الدين. فالإخبار بأن الفتي كان يرى الأكمه والأبرص ويحيى الموتى أمر خيالي، لا واقع له إلا في أذهن من يؤمنون بالخرافات والأساطير، ويعتقدون في قدرة أناس من ابشر على الإتيان بما هو خارق للطبيعة، وبعيد كل البعد عن المألوف في المجتمعات الإنسانية، على الرغم من أنهم ليسوا رسلاً أرسلهم الله إلى مجتمعاتهم ليهدهم إلى طريق الله. وسوف نبين المزيد مما نسج حول هذه القصة من خرافات، عندما نتناول ما ذكره القرآن الكريم عن أخبار أصحاب الأعدود.

٢. الإخبار بأن القوم آمنوا كلهم بمجرد تنفيذ الملك الخطة التي أشار بها الفتي عليه ليقته مخالف لسنن الله في النفس البشرية، فلم يحدث أن آمن قوم أي رسول بمجرد أن أظهر الله على يديه المعجزة، مهما بلغت غرابتها بالنسبة لهم، فلم يؤمن أحد بموسى عليه السلام يوم أن أبطل سحر السحرة إلا السحرة أنفسهم، فلم يؤمن أحد من الجمهور، رغم رؤيتهم لغرابته ما ظهر على يديه من إبطال سحر السحرة، وكذلك لم يؤمن فرعون وحاشيته. كذلك لم يؤمن قوم عيسى عليه السلام كلهم - كما

حدث مع الفتى - عندما شاهدوا معجزته، ولا بمحمد ﷺ عندما أدركوا عجزهم عن الإتيان بمثل آية واحدة من القرآن الكريم. فهل كان عمل الفتى أكبر تأثيراً من معجزات الأنبياء؟ هل أعطى الله للفتى قوة خارقة في الإقناع أكثر من أى نبي قبله أم بعده؟

إنها الغريزة الإنسانية التي تميل بطبعها إلى سماع - ونسج - الغرائب من الخرافات والأساطير، وهي طبيعة أكثر الطبقات الاجتماعية في المجتمعات الإنسانية على اختلاف درجاتها الحضارية. وليس هذا قاصراً فقط على الجهلاء الذين لم ينالوا حظاً من التعليم والثقافة، بل إننا أحياناً نجد هذه الظاهرة في أوساط من تلقوا ثقافة عالية، مما يدل على أن ذلك من طبائع الإنسان وغرائزه التي لا تمحوها الثقافة العابرة، بل لا بد من فكر واعٍ، وعقل مستنير، وأفق واسع، وقدرة على التفكير المجرد الذي يتطلع إلى ما وراء الحجب الفكرية من نور ساطع، يقود من يراه إلى البحث في آفاق الصور الفكرية، والمعاني اللغوية، ودهاليز التاريخ الإنساني بما فيه من معالم وأسرار.

وتلك منحة يمنحها الله لمن أراد ليقود الأمة إلى التقدم والرقى، وهؤلاء هم قاطرة الحضارة، وشموع الفكر والتنوير.

فماذا قال القرآن الكريم عن أصحاب الأخدود؟

يقول الله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾ [الدروج: ١ - ٨]

روى المفسرون قصة أصحاب الأخدود بطرق متباينة، ذكر الرازي ثلاثة

منها:

الرواية الأولى: ما ذكرناه عن الساحر والغلام..... وقد بينا ما فيها من عناصر أسطورية.

الرواية الثانية: ما روى عن علي عليه السلام أنهم حين اختلفوا في أحكام الجوس قال: هم أهل الكتاب، وكانوا متمسكين بكتابهم، وكانت الخمر قد أُحلت لهم، فتناولها بعض ملوكها، فسكر، فوقع على أخته، فلما صحا ندم، وطلب المخرج، فقالت له: المخرج أن تخطب الناس، فتقول: إن الله تعالى قد أحل نكاح الأخوات، ثم تخطبهم بعد ذلك فتقول: بعد ذلك حرمه. فخطب، فلم يقبلوا منه ذلك، فقالت له: أبسط فيهم السوط، فلم يقبلوا، فقالت: أبسط فيهم السيف، فلم يقبلوا، فأمرته بالأخايد وإيقاد النار، وطرح من أتى فيها، وهم الذين أرادهم الله بقوله: ﴿قِيلَ اصْحَبِ الْأَخْدُودِ﴾ [البروج: ٤] ولا يخفى ما في هذه من معالم الأسطورة.

الرواية الثالثة: أنه وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى عليه السلام فدعاهم، فأجابوه، فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنوده من حمير، فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا، فأحرق منهم اثني عشر ألفاً في الأخايد،..... وعن النبي صلى الله عليه وآله: " أنه كان إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوذ بالله من جهد البلاء " ويرى بعض الباحثين أن تعارض هذه الروايات يدل على كذبها.... وقال القفال: ذكروا في قصة أصحاب الأخدود روايات مختلفة، وليس في شيء منها صحيح.... وأظن أن هذه الواقعة كانت مشهورة عند قريش، فذكر الله تعالى ذلك لأصحاب رسوله تبييناً لهم على ما يلزمهم من الصبر على دينهم، واحتمال المكاره فيه، فقد كان مشركو قريش يؤذون المؤمنين على حسب ما

اشتهرت به من الأخبار من مبالغتهم في إيذاء عمار وبلال. ١٠٤

لم يرد في القرآن الكريم ما يشير إلى أي من تلك الروايات الثلاثة، وعليه فيمكن القول بأن الله أراد أن يغرس في قلوب من كان يعذبهم المكيون من المسلمين الصبر، مذكراً إياهم بأن يتحملوا كما تحمل المؤمنون قبلهم ممن عذبهم أصحاب الأخدود.

والمعنى: لعن أصحاب الأخدود ( أي الذين كانوا يعبدون النار ) على ما فعلوه بالمؤمنين من تنكيل وتعذيب، ويجب أن يفهم المسلمون أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود.

لم يذكر القرآن الكريم كنه هذا الذي فعلوه بالمؤمنين من تعذيب؛ لأن المراد تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان وإلحاق أنواع الأذى، وصبرهم وثباتهم حتى يأنسوا ويصبروا على ما كانوا يلقونه من أقوامهم ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعدّين لمن خالفهم في العقيدة، فهم ملعونون، ويمكن أن يقال فيهم: قُتِلَتْ قريش، كما قُتِلَ أصحاب الأخدود. وقُتِلَ: دعاء عليهم، كقوله تعالى: ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۚ ﴾ [عبس: ١٧]

ومن هنا يتبين أن القرآن الكريم لم يقصد ما ذكره في رواياتهم من خرافات وأساطير، وإنما أراد تثبيت قلوب المسلمين في مكة على الإيمان بالله.

obeikandi.com

## بقرة بنى اسرائيل

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۗ قَالُوا أَنَتَّخِذُنَا هُزُورًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بُكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ۗ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا لَوْ هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا آلَسَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَدَجَّبُوهُمَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧١]

تعددت روايات المفسرين لقصة بقرة بنى اسرائيل<sup>١٥٠</sup>، ونلخصها فيما يلي:  
 عن ابن عباس أن شيخاً من بنى اسرائيل على عهد موسى عليه السلام كان مكثرأ من المال، وكان بنو أخيه فقراء، لا مال لهم، وكان الشيخ لا ولد له، وكان بنو أخيه ورثته؛ فقالوا: ليت عمنا قد مات فورثنا ماله، وإنه لما تطاول عليهم ألا يموت عمهم، أتاهم الشيطان فقال لهم: هل لكم أن تقتلوا عمكم فترثوا ماله، وتغرموا أهل المدينة التي لستم بها ديتة، وذلك أنهما كانتا مدينتين كانوا في إحداهما، وكان القتل إذا قُتل وطُرح بين المدينتين، قيس ما بين القتل والقريتين، فأيتهما كانت أقرب إليه، غرمت الدية، وأهم لما ستول لهم الشيطان

(١٥٥) خاض مفسرو المسلمين في شرح هذه القصة، فقالوا: إنه كان في بنى اسرائيل شيخ موسر، فقتل بنو أخيه ابنه طمعاً في ميراثه، وطرحوه على باب المدينة، ثم جاءوا يطالبون بدمه، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة، وروى أن شيخاً صالحاً من بنى اسرائيل كان له عَجَلَةٌ، فأتى بها الفيضة، وقال لهم: إنى أستودعكمها لابنى حتى يكبر، فثبت، وكانت وحيد بتلك الصفات، فساوموها بالتييم وأمه حتى اشتروها بجلء مسكها ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير..... [الزنجشبرى ج ٢ ص ٦٧].

ذلك، وتطاول عليهم أن لا يموت عمهم، عمدوا إليه فقتلوه، ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التي ليسوا فيها: فلما أصبح أهل المدينة، جاء بنو أخی الشيخ فقالوا: عمنا قُتل على باب مدينتكم، فوالله لنغرمنكم لنا دية عمنا، قال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا قاتلاً، ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا، وإثم عمدوا إلى مرسى النبي ﷺ، فلما أتوه، قال بنو أخی الشيخ: عمنا وجد مقتولاً على باب مدينتهم، وقال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلناه، ولا فتحنا باب مدينتنا من حين أغلقناه حتى أصبحنا، وإن حبريل جاء بأمر السميع العليم إلى مرسى النبي ﷺ فقال له: قل لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذَبَحُوا بَقْرَةَ قَالُوا أَنْتَ خِدْنَا هُزُؤًا﴾، يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتل، وأنت تقول هذا؟

﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، أى أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى إلى، وهذا هو الذى أجابني، حين سألتهم عن أسأله فيه.

قال ابن عباس، وعبيدة، ومجاهد، وعكرمة: فلو أنهم عمدوا إلى أى بقرة، فذبحوها لحصل المقصود منها، ولكنهم تددوا فشدد الله عليهم..... والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان، وهى الوسط بين النصف، الفارض: وهى الكبيرة، والبكر: وهى الصغيرة، وقال ابن عباس. ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة: شددوا فشدد الله عليهم، وضيقوا على أنفسهم، فسألوا عن لوها، فأمروا بصفراء فاقع لوها... ثم شددوا أيضاً: ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَةَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، قال: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا لَئِن جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١١) ويقال: إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم، فسألوه أن يبيعهم إياها ببقرة، فأبى، فأعطوه

ثنتين، فأبى، فزادوه حتى بلغوا عشراً، فقالوا: والله لا نتركك حتى نأخذها منك، فانطلقوا به إلى موسى عليه السلام، فقالوا: يابى الله! إنا وجدناها عند هذا، وأبى أن يعطيناها، وقد أعطيناها ثمناً، فقال له موسى: أعطهم بقرتك، فقال: يارسول الله! أنا أحتق بمالى، فقال: صدقت، وقال للقوم: أرضوا صاحبكم، فأعطوه وزنها ذهباً، فأبى، فأضعفوه له حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهباً، فباعهم إياها، وأخذ ثمنها، فذبحوها، قال: اضربوه ببعضها، فضربوه بالبضعة التى بين الكتفين، فعاش، فسألوه: من قتلك؟ فقال لهم: ابن أخى..... فأخذوا الغلام فقتلوه. ١٠٦

فإذا بحثنا فى التوراة عن هذه القصة وجدنا فى سفر التثنية ما يلى:

" إِذَا وَجَدَ قَتِيلٌ فِي الْأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهَكَ لَتَمْتَلِكَهَا وَأَقْعاً فِي الْحَقْلِ لَا يُعْلَمُ مَنْ قَتَلَهُ. يَخْرُجُ شُيُوخُكَ وَقَضَائِكَ وَيَقْيِسُونَ إِلَى الْمُدُنِ الَّتِي حَوْلَ الْقَتِيلِ. فَالْمَدِينَةُ الْقُرْبَى مِنَ الْقَتِيلِ يَأْخُذُ شُيُوخُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ عَجَلَةً مِنَ الْبَقْرِ لَمْ يُحْرَثْ عَلَيْهَا لَمْ تَجْرُ بِالْبَثِيرِ. وَيَنْحَدِرُ شُيُوخُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ بِالْعَجَلَةِ إِلَى وَادٍ دَائِمِ السَّيْلَانِ لَمْ يُحْرَثْ فِيهِ وَلَمْ يُزْرَعْ وَيَكْسِرُونَ عُنُقَ تِلْكَ الْعَجَلَةِ فِي الْوَادِي. ثُمَّ يَتَقَدَّمُ الْكَهَنَةُ بَنُو لَأوِي. لِأَنَّهُ إِيَّاهُمْ اخْتَارَ الرَّبُّ إِلَهَكَ لِيَخْدُمُوهُ وَلِيَبَارِكُوا بِاسْمِ الرَّبِّ وَحَسَبَ قَوْلِهِمْ تَكُونُ كُلُّ خُصُومَةٍ وَكُلُّ ضَرْبَةٍ. وَيَغْسِلُ جَمِيعُ شُيُوخِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ الْقَرِيبِينَ مِنَ الْقَتِيلِ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْعَجَلَةِ الْمَكْسُورَةِ الْعُنُقِ فِي الْوَادِي. وَيَصْرُخُونَ وَيَقُولُونَ أَيْدِينَا لَمْ تَسْفِكْ هَذَا الدَّمَ وَأَعَيْنَانَا لَمْ تُبْصِرْ. إِغْفِرْ لَشَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ الَّذِي فَدَيْتَ يَارَبُّ وَلَا تَجْعَلْ دَمَ بَرِيٍّ فِي وَسْطِ شَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ. فَيَغْفِرْ لَهُمُ الدَّمَ. فَتَنْزِعُ الدَّمَ الْبَرِيٍّ مِنْ وَسْطِكَ إِذَا عَمِلْتَ الصَّالِحَ فِي عَيْتِي الرَّبِّ " . [ سفر التثنية ٢١: ١ - ٩ ]

فالناظر إلى هذا النص يفهم منه أن موسى عليه السلام أراد أن يشرع لهم ما يجب عليهم أن يقوموا به عند وقوع مثل هذه الحادثة، فليس فيها ضرب للميت ببعض البقرة المذبوحة، وإنما هو يشبه بالجملة ما يحدث عند الأعراب عندما يوجد قتيل لا يعلمون قاتله، فالمعروف والمتبع عندهم في مثل هذه الحالة أنه إذا وجهت التهمة إلى قوم، أرسلوا إليهم رسولاً يقول لهم: إن دمنا عندكم، فاذبحوا لنا ذبيحة. فإذا فعلوا جاء أولياء الدم وأقسم المتهمون بمين القسامة أنهم لم يقتلوا ذلك القتيل، ولا يعلمون قاتله. ثم يسوى لهم لحم الذبيحة فيأكلون، ويأمن بعضهم بعضاً، وتثبت براءتهم من القتل، وهذا هو المفهوم من القصة التي وردت في سفر التثنية، وليس فيه ما يفيد ضرب الميت بجزء من هذه البقرة، ولا يشير من قريب أو بعيد إلى إحياء الميت بسبب هذه الضربة، وتعيين من قتله.

فليس في نص القرآن الكريم ما يؤيد ضرب القتيل ببعض البقرة، وإحيائه وإخباره بمن قتله، وإنما هي أساطير حاكها الفكر الإسلامي حول هذه القصة متأثراً بروايات إسرائيلية، تلقفها المفسرون من مسلمي أهل الكتاب، أمثال: كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام الذين لا يزالون بما ينسبونه إلى التوراة، وهي خالية منه، وقد أفاضوا على المسلمين ثروة من تلك الإسرائيليات التي لم يترز الله بها من سلطان، ولا يمكن أن يأخذها أحد من المسلمين، ويجعلها برهاناً على أمر من الأمور. <sup>١٠٧</sup>

" فإذا نظرنا إلى القصص التي قصها الله في هذه السورة قبل هذه القصة - وكلها متعلقة بيني إسرائيل - وجدنا كل قصة مستقلة عما قبلها وما بعدها مبدوءة بقوله تعالى: "وإذ"، إقرأوا: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ -

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ - وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً - وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ - وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ - وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً - وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ - وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ - وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامِ وَاجِدٍ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ - وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً - وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَءْهَا ثُمَّ فِيهَا ﴿١٠٠﴾

فهذا النسق المطرد الذي لم يتخلف يجعل مسألة قتل النفس والتدارؤ فيها مسألة مستقلة بنفسها، غير مرتبطة بما قبلها، ولا مدمجة فيها.... ذلك أن القصة التي أمر فيها موسى قومه بذبح البقرة لم يكن الغرض منها الإتيان بكل ما اشتملت عليه واندرج فيها من الحالات والأحكام؛ بل الغرض أن يقص الله على رسوله محمد ﷺ نموذجاً مما بلغ إليه تعنت بني إسرائيل في إبطائهم عن امتثال أمر الله، ومطاولتهم، ومماطلتهم في تنفيذ ما يأمرهم به، دون استيفاء القصة استيفاء كاملاً يشتمل على بيان الحكمة الباعثة على أمرهم بذبح البقرة، بل هو يقص علينا نطقاً من تعنتهم وصلابة أعناقهم.

وأما القصة الأخرى المبينة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَءْهَا ثُمَّ فِيهَا﴾، فإنه يقص علينا لونا من أفضاله على بني إسرائيل، وحل مشكلاتهم بطريقة لم تخطر لهم، ولا لبشر ببال، وظلت هذه الحكمة العالية، المشتملة عليها تلك الطريقة غامضة على بني إسرائيل، وعلى جميع البشر الأجيال الطوال.

والذي فهمته من القصة الأولى: أن بني إسرائيل قد وقعت عندهم واقعة، قد حاروا فيها، وهي أن شخصاً قد قُتل في الحقل، وهم لا يدرون من قتله، والحقل واقع بين بلاد كثيرة، فأى البلاد تلصق بأهله تهمة القتل؟ رفعوا أمرهم إلى موسى، فما كان جوابه إلا أن قال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا

بَقْرَةً ۖ، ولما كان الجوب بعيداً في رأيهم عن الغرض الذي جاءوا لأجله، وقع ذلك عندهم موقع الغرابة، وقالوا لموسى: ﴿أَلَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾، ولما كان موسى إنسان صدق، بعيداً عن الهزء والسخرية بعباد الله، قال لهم: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، الذين يهرون بعباد الله.

ثم كانت المراجعة بينهم وبين موسى وربه حتى بين لهم شأن البقرة، ولونها، وأحوالها أتم بيان، ومع ذلك لم يمثلوا، بل ذبحوها بعد إذ كادوا لا يفعلون، أى أنهم ذبحوها بعد جهد شديد.

أتى موسى برجال أقرب محلة من سكان القتييل، وأحلفهم عليها بعد ذبحها، أى وهى أمامهم،: أنهم ما قتلوا القتييل، ولا علموا به، وأنهم برآء من دمه، وكانوا يغسلون أيديهم على البقرة، كما قص ذلك في التوراة.<sup>١٠٨</sup>

هذه اليمين في شريعتهم كيمين القسامة عندنا معشر المسلمين؛ إذا قُتِلَ قَتِيلٌ في محلة غير محلة قومه، أو بقرب تلك المحلة، ولم يعلم قاتله، وكان هناك لوث يقع به في النفس صدق المدعى، وهو ولى الدم ( واللوث: القرينة ) حلف خمسين يمينا، واستحق الوارث بالقسامة في القتل الخطأ، أو شبه العمد، الدية في القتل العمد حالة على المقسم به. ولا قصاص في الجديد، لأن القسامة حجة ضعيفة، فلا توجب القود احتياطاً للدماء. وإن لم يكن هناك لوث، أو أنكر المدعى عليه اللوث في حقه، فاليمين على المدعى عليه. وأظهر الأقوال أنه يغلظ عليه بالعدد.<sup>١٠٩</sup>

فتلك عند اليهود شرع كالقسامة عند المسلمين في الجملة.

وأما القصة الثانية، وهى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾، فهى في شأن

١٠٨ ( النجار ص ٢٦٠ - ٢٦٢ .

١٠٩ ( راجع الخطيب ج ٢ ص ٤٢٩ - ٤٣٢ .

قتيل وجد قتيلاً في بيته، أو محلة قومه، أو سقط في معركة فيها جماعة، وقد دفع كل واحد القتل عن نفسه، ولم يتعين قاتله تماماً، وكل واحد يتهم سواه بالقتل. وحينئذ يكون المتهمون محصورين، والقاتل لا يخرج عنهم بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَذَرْنَا مِنْهُمُ فِيهَا﴾، ولما كان الله تعالى مخرجاً ما يكتمون من القتل، علمهم طريقة يميز بها القاتل من البريء. أو هي على الأقل تضيق دائرة الاتهام، وتوجه نظر القاضي إلى استنباط الأدلة على المتهم، أو من له اتصال بالقتل.

ذلك أنهم يأتون بالمتهم، ثم يضربونه بجزء من تلك النفس، أى من القتييل، وهو متصل ببقية الجسم، بأن يأتى واحد ويضرب المتهم بيد القتييل أو رجله، فإذا كان المتهم بريئاً لم يحدث له شيء، وإذا كان قاتلاً ظهر عليه انفعال نفسى، ورعدة يعلم بسببها أنه القاتل دون سواه، أو هو على اتصال به.

وهذا الأمر يرجع إلى أحوال الغرائز النفسية، وإلى العقل الباطن فى الإنسان؛ ذلك أن القاتل حين يياشر الجريمة - وبخاصة القتل - يكون واقعاً تحت تأثير انفعال خاص يغلى منه دمه، يدفعه ذلك الانفعال إلى ارتكاب جريمة القتل، فإذا سكن نائره، وهدأت أعصابه، وزال ذلك الدافع الذى أكسبه الجرأة حتى طوعت له نفسه ارتكاب الجريمة، عاوده الندم، وتبكت الضمير، وصار شبح الجريمة مخفياً فى نظره، ويتمثل له شبوحها فى كل شيء يتعلق بها، فهو يكره رؤية مكان الجريمة، والأشياء التى رآها رؤية مقارنة لارتكابها، وتضطرب نفسه، ويرتفع نبضه ويسرع إذا ذُكر بشيء من الجريمة.

ويكثر أنه إذا أُدخِل على القتييل، أو عُرض عليه تألم أشد ألم عرفه، واضطرب، ولم يستطع النظر إليه، ولا إلى مكان حدوث الجريمة، فكيف إذا حرك عضو من أعضاء القتييل وضرب به القاتل، لاشك فى أن ذلك العمل يكون ذا تأثير عظيم فى أعصابه لا يطبق معه ذلك المنظر.

هذا إذا كان القتل لحادث عارض، أما إذا كان انتقاماً للشرف أو لثأر، فإن الأعراس التي يأتي بها الانفعال تكون فرحاً وجدلاً". ١١٠

## نبأ الخصم

تحدث القرآن الكريم في سورة " ص " عن داود عليه السلام في إحدى عشرة آية اشتملت على ثلاثة موضوعات:

الموضوع الأول: بيان ما أنعم الله به عليه من: تسخير الجبال، وسيطرته على الطير، وتقوية ملكه، وإعطائه الحكمة وفصل الخطاب، وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص: ١٦ - ٢٠]

وقد خاض كثير من المفسرين وكتاب السير في تفصيل هذه النعم، فاختلطت الحقائق في مدوناتهم بالأساطير، بل إن الغالب الأعم في رواياتهم كان أسطورياً، ذلك أنهم قالوا: " كان ( داود ) يقرأ الزبور بسبعين لحناً، بحيث يعرق المحموم، ويفيق المغمى عليه، وكان إذا قرأ الزبور برز إلى البرية، فيقوم وتقوم معه علماء بنى إسرائيل خلفه، وتقوم الناس خلف العلماء، وتقوم الجن خلف الناس، وتقوم الشياطين خلف الجن، وتدنو الوحوش والسباع ويؤخذ بأعناقها، وتظلل الطيور مصغية، ويركد الماء الجارى، ويسكن الريح..... ويقال: إن داود عليه السلام كان إذا تخلل الجبال، فسيح الله تعالى جعلت الجبال تجاوبه بالتسيح نحو ما يسيح، ثم قال في نفسه ليلة من الليالي: لأعبدن الله تعالى عبادة لم يعبد أحد بمثلها، فصعد الجبل، فلما كان جوف الليل داخلته وحشة، فأوحى الله تعالى إلى الجبال أن آنسى داود، فاصطكت الجبال بالتسيح والتقديس والتهليل، فقال داود في نفسه: كيف يُسَمَّع صوتى مع هذه الأصوات؟ فهبط عليه جبريل

الطَّيْرَ، وأخذ بعضده، حتى انتهى به إلى البحر، فوكزه برجله، فانفجرت له الأرض، فانتهى به إلى الحوت، فوكزه برجله، فانتهى به إلى الصخرة، فوكز الصخرة برجله، فانفلقت، فخرج منها دودة تنش، فقال له جبريل: إن ريك يسمع نشيش هذه الدودة في هذا الموضع..... قال ابن عباس: وكان داود يفهم تسييح الحجر والشجر والمدر.... وقال ابن عباس: كان - أى داود - أشد الملوك سلطاناً، وكان يحرس محرابه كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألف رجل، وقال السدى: كان يحرسه كل ليلة أربعة آلاف رجل..... وروى في الأخبار أن داود عليه السلام لما ملك بنى إسرائيل كان من عاداته أن يخرج إلى الناس متنكراً، فإذا رأى رجلاً لا يعرفه تقدم إليه، فيسأله عن داود، فيقول له: ما تقول في داود وَالْيَكُومِ هذا: أى الرجل هو؟، فيثنى عليه ويقول خيراً، فبينما هو كذلك يوماً من الأيام، إذ قبض الله له ملكاً في صورة الآدميين، فلما رآه تقدم إليه داود على عادته فسأله، فقال له الملك: نعم الرجل هو، لولا خصلة فيه، فراع داود ذلك، فقال: ماهى يا عد الله؟ قال: إن داود يأكل ويطعم عياله من بيت المال. قال: ففتنه لذلك، وسأل الله تعالى أن يسبب له سبباً يستغنى به عن بيت المال، فينفق منه ويطعم عياله، فألنا له الحديد، فصار في يده مثل الشمع والعجين والطين المبلول، وكان يصرفه بيده كيف يشاء من غير إدخال نار ولا ضرب بحديد، وعلمه الله تعالى صنعة الدروع، فكان يتخذ الدروع، وهو أول من عملها، وكانت قبل ذلك صفائح: فيقال: إنه كان يبيع كل درع بأربعة آلاف درهم، فيأكل ويطعم عياله، ويتصدق منها على الفقراء والمساكين فذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ﴾ [سبا: ١١]، أى دروعاً كوامل واسعات: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبا: ١١]، أى لا تجعل المسامير دقاقاً، فتعلق، ولا

غلاظاً، فتكسر الحلق..... " ١١١

وقال البيضاوى فى قوله: " أُوْبِي " : " رَجَعِي فى التسييح كلما رجع فيه " ، وهذا يدل على عظم شأنه وكبريائه وسلطانه، حيث جعل الجبال كالعقلاء المتقادين لأمره فى نفاذ مشيئته..... إلانة الحديد له، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَالنَّالَهُ الْحَدِيدَ ۗ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتِي وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ۗ ﴾ [س: ١٠ - ١١] النسيج أو الثقب، قال البيضاوى فى ﴿ وَالنَّالَهُ الْحَدِيدَ ۗ ﴾ : " جعلناه فى يده كالشمع يصرفه كيف يشاء من غير إجماء وطرق بالآله أو بقوته " ، فكان يعمل الدروع المسردة، أى ذات الحلق من الحديد بيده، معجزة له، وأمرأ خارقاً للعادة. ولو كان يعمل الدروع بواسطة النار لم يكن فى ذلك امتناناً من الله عليه، إذ كل الناس يعملون كذلك، اللهم إلا أن يدعى مدع أن إلانة الحديد لم تكن معروفة قبل داود، وأن الله هداه إلى هذا الأمر الذى لم يكن معروفاً قبله.... "

غير أن بعض المفسرين نحا نحواً بعيداً عن جَوِّ الأسطورة، منهم الرازى، فقال فى شرح هذه الآيات: بالغ الكفار فى السفاهة على رسول الله ﷺ، فقالوا: ﴿ عَجَلْنَا قَطَنًا ۗ ﴾، أى عجل لنا نصيينا من الجنة، لأنهم كانوا ينكرون البعث والحشر، فقال الله تعليقاً على كلامهم: ﴿ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ۗ ﴾، كأنه قيل: إن كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهال جراءهم على الله وإنكارهم الحشر والنشر، فاذا ذكر قصة داود حتى تعرف شدة خوفه من الله تعالى ومن يوم الحشر..... أو كأنه قيل لمحمد: لا يضيق صدرك بسبب إنكارهم لقولك ودينك، فإنهم إذا خالفوك، فالأكابر من الأنبياء وافقوك. ١١٢

( ١١١ ) اقرا ما سَطَّرَ حول هذا الموضوع من أساطير عند الثعلبى ص ٢٧٥ - ٢٧٩ .

( ١١٢ ) الرازى ج ٢٦ ص ١٦٠ .

أما شرحه لقوله تعالى: ﴿يَجِبَالٌ أَوِيٌّ مَعَهُ وَالطَّيْرُ مَعَهُ﴾، فقال: " .. يجوز أن يقال: إن داود عليه السلام قد أوتى من شدة الصوت وحسنه ما كان له في الجبال دوى حسن، وما يصغى الطير إليه لحسنه، فيكون دوى الجبال وتصويت الطير معه، وإصغاؤه إليه تسييحاً"، غير أنه عندما ينقل عن الرواة يظهر في مروياته ما يشبه الأسطورة؛ فإنه عندما روى ما قاله السابقون في تفسير هذه الآية، ينقل عما روى عن ابن عباس قوله: كان داود إذا سبغ جاوبته الجبال، واجتمعت إليه الطير فسبغت معه، ثم يعقب على ذلك بقوله: واجتماعها إليه هو حشرها، فيكون على هذا التقدير حاشرها هو الله، فإن قيل: كيف يصدر تسييح الله عن الطير مع أنه لا عقل لها، قلنا: لا يبعد أن يقال: إن الله تعالى كان يخلق لها عقلاً، حتى تعرف الله، فتسبحه حينئذ، وكل ذلك كان معجزة لداود عليه السلام ١١٣

وعندما ننظر إلى هذه الآيات بعقل واعٍ - بعيداً عما رواه المغرمون بالأساطير، ميلاً إليها، أو أسلوباً لجذب العامة وسرعة التأثير عليهم - يتبين لنا أن هذه النعم هي:

١. تسخير الجبال لداود عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾، فهو على سبيل المجاز كما في آيات كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحشر: ٢٤]، وغيرهما من الآيات التي تُسبب فيها التسييح إلى غير العاقل، إذ المراد



فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْيِكَ إِلَيَّ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ  
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا  
فَتَنَّهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ، وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ  
وَحُسْنَ مَّكَابٍ (٢٥) ﴿ [ص: ٢١ - ٢٥]

ذَكَرَ فِي التَّرَاثِ الْإِسْلَامِي قِصَّةَ رُويَتِ بِثَلَاثِ رَوَايَاتٍ:

الأولى: إن داود نظر - وهو يمشى على سطح داره - إلى امرأة تستحم، فأعجبته وأغرم بها، وأتى بها واضطجع معها، فحملت منه وأعلمته، وكان زوجها "أوريا الحثي" في الحرب، فأتى به ليسأله عن أمر الحرب في الظاهر، وليحدث الرجل بامرأته عهداً حتى لا يرتاب بامرأها إذا علم فيما بعد أنها حامل، ولكن الرجل كان تقياً جداً، فبات يباب داود ولم يزر امرأته، لأنه رأى من عدم التقوى أن يتمتع بزوجه وإخوانه في الحرب بعيدون عن أزواجهم. فلما علم داود بامرأته لم ير وسيلة لعدم انتضاح أمره إلا تعريض "أوريا" لجهة القتال حاملاً الراية، وأن يتأخر عنه الجند بعد التقدم؛ وبهذه الوسيلة قُتل الرجل، وأتت امرأته بولد من تلك الزنية! وتزوجها داود، ثم مرض الولد فحزن داود لمرضه حزناً شديداً حتى لا يقدر أحد على تسرية همه. ثم مات الولد. ومن هذه المرأة كان سليمان. فهذه القصة ترديد لما يرويه اليهود في كتابهم المقدس. ١١٥

(١١٥) " وَكَانَ فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ أَنَّ دَاوُدَ قَامَ مِنْ سَرِيرِهِ وَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ بَيْتِ الْمَلِكِ فَرَأَى مِنْ عَلَى السُّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحِمُّ. وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ حَمِيلَةً الْمَنْظَرِ جَدًّا. فَأَرْسَلَ دَاوُدَ وَسَأَلَ عَنِ الْمَرْأَةِ فَقَالَ وَاحِدَةً أَلَيْسَتْ هَذِهِ بِنْتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ فَأَرْسَلَ دَاوُدَ رُسُلًا يَأْخُذُهَا فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ فَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمَئِنِّهَا. ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا. وَحَمِلَتِ الْمَرْأَةُ فَأَرْسَلَتْ وَأَخْبَرَتْ دَاوُدَ وَقَالَتْ إِنِّي حَمْلِي. فَأَرْسَلَ دَاوُدَ إِلَى يُوَابَ يَقُولُ أَرْسِلْ إِلَيَّ أَوْرِيَّا الْحِثِّيَّ، فَأَرْسَلَ يُوَابُ أَوْرِيَّا إِلَى دَاوُدَ. فَأَتَى أَوْرِيَّا إِلَيْهِ فَسَأَلَ دَاوُدَ عَنْ سَلَامَةِ يُوَابَ وَسَلَامَةِ الشُّعْبِ وَتَمَحَّاجِ الْحَرْبِ. وَقَالَ دَاوُدُ لِأَوْرِيَّا: الْبُرُّ إِلَى يَتَيْكَ وَاغْسِلْ رِجْلَيْكَ. فَخَرَجَ أَوْرِيَّا مِنْ بَيْتِ -

الثانية: نفس القصة، ولكنها رويت برواية أخرى، وهي أن داود "... نظر إلى امرأة في بستان على شط بركة تغتسل، هذا قول الكلبي. وقال السدي: رآها تغتسل على سطح لها، فرآها امرأة من أحسن النساء خلقاً، فتعجب داود من حسنها، وحانت منها التفاتة، فأبصرت ظل داود ~~الطويل~~، فنشرت شعرها فغطى بدنها كلها، فزاد ذلك إعجاباً بها، فسأل عنها، فقيل له: هي سابع بنت شائع، امرأة أوريا بن حنان، وزوجها في غزاة البلقاء مع أيوب بن سوريا ابن أخت داود، فكتب داود إلى ابن أخته أيوب، صاحب بعث بلقاء: أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وكذا، وقدمه على التابوت، وكان المقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع إلى ورائه حتى يفتح الله على يديه أو يُستشهد، فبعث به ففتح له، فكتب إلى داود بذلك، فكتب إليه داود أيضاً: أن ابعته إلى غزوة كذا، وكان رئيسها أشد منه بأساً، فبعثه، فقتل في المرة الثانية، فلما انقضت عدتها

«الْمَلِكِ وَخَرَجَتْ وَرَأَاهُ حَصَّةً مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ. وَتَمَّ أُرْيَا عَلَى بَابِ بَيْتِ الْمَلِكِ مَعَ جَمِيعِ عِبِيدِ سَيِّدِهِ وَتَمَّ يَنْزِلُ إِلَى بَيْتِهِ. فَأَخْبَرُوا دَاوُدَ قَائِلِينَ لَمْ يَنْزِلْ أُرْيَا إِلَى بَيْتِهِ فَقَالَ دَاوُدُ لِأُرْيَا أَمَا جِئْتَ مِنَ السَّعْرِ. فَلَمَّا ذَا لَمْ يَنْزِلْ إِلَى بَيْتِكَ. فَقَالَ أُرْيَا لِدَاوُدَ إِنَّ التَّابُوتَ وَإِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا سَاكِنُونَ فِي الْخِيَامِ وَسَيِّدِي يُوَابُ وَعَبِيدُ سَيِّدِي نَازِلُونَ عَلَى وَجْهِ الصَّخْرَاءِ وَأَنَا آتِي إِلَى بَيْتِي لِأَكُلَ وَأَشْرِبَ وَأَضْطَجِعَ مَعَ امْرَأَتِي. وَحَيَاتِكَ وَحَيَاةِ نَفْسِكَ لَا أَفْعَلُ هَذَا الْآمَرَ. فَقَالَ دَاوُدُ لِأُرْيَا أَمَّا هُنَا الْيَوْمَ أَيْضاً وَغَدًا أَطْلُقُكَ. فَأَقَامَ أُرْيَا فِي أُورُشَلِيمَ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَغَدَهُ. وَدَعَاهُ دَاوُدُ فَأَكَلَ أَمَامَهُ وَشَرِبَ وَأَسْكِرَهُ. وَخَرَجَ عِنْدَ الْمَسَاءِ لِيَضْطَجِعَ فِي مَضْجَعِهِ مَعَ عِبِيدِ سَيِّدِهِ وَإِلَى بَيْتِهِ لَمْ يَنْزِلْ.

وَفِي الصَّبَاحِ كَتَبَ دَاوُدُ مَكْتُوبًا إِلَى يُوَابَ وَأَرْسَلَهُ بِيَدِ أُرْيَا. وَكَتَبَ فِي الْمَكْتُوبِ يَقُولُ اجْعَلُوا أُرْيَا فِي وَجْهِ الْخَرْبِ الشَّدِيدَةِ وَارْجِعُوا مِنْ وَرَائِهِ فَيَضْرِبَ وَيَمُوتَ. وَكَانَ فِي مُحَاصِرَةِ يُوَابَ الْمَدِينَةِ أَنَّهُ جَعَلَ أُرْيَا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي عَلِمَ أَنَّ رِجَالَ الْبَأْسِ فِيهِ. فَخَرَجَ رِجَالُ الْمَدِينَةِ وَحَارَبُوا يُوَابَ فَسَقَطَ بَعْضُ الشَّعْبِ مِنْ عِبِيدِ دَاوُدَ وَمَاتَ أُرْيَا الْحَيُّ أَيْضاً..... فَلَمَّا سَمِعَتْ امْرَأَةُ أُرْيَا أَنَّهُ قَدْ مَاتَ أُرْيَا رَجُلَهَا نَدَبَتْ بَعْلَهَا. وَلَمَّا مَضَتْ الْمَتَاحَةُ أَرْسَلَ دَاوُدَ وَضَمَّهَا إِلَى بَيْتِهِ وَصَارَتْ لَهُ امْرَأَةً وَوَلَدَتْ لَهُ ابْنًا. وَأَمَّا الْآمَرُ الَّذِي فَعَلَهُ دَاوُدُ فَفُجِحَ فِي عَيْنِي الرَّبِّ." [ صموئيل الثان ١١: ٢-١٧، و ٢٦-٢٧ ]

تزوجها داود، فهي أم سليمان عليه السلام. ١١٦

الثالثة: كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن يتزل له عن امرأته، فيتزوجها إذا أعجبت، وكانت هم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها، وقد روى أن الأنصار كانوا يواسون المهجرين بمثل ذلك، فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له "أوريد"، فأحبها، فسأله التزول له عنها، فاستحيا أن يرده، ففعل فتزوجها، وهي أم سليمان، فقيل له: إنك مع عظم منزلتك، وارتفاع مرتبتك، وكبر شأنك، وكثرة نساءك: لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة التزول، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك، وقهر نفسك، والصبر على ما امتحنت به. وقيل خطبها أوريا، ثم خطبها داود، فأثره أهلها، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن، مع كثرة نسائه.

فهذه أقوال السلف الصالح من أهل التفسير والقاصون في قصة داود وانتشرت بين الناس لمضمونها الأسطوري، فاستنكر ذلك أهل الصلاح والتقوى، فقد روى الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القاصون معتقداً صحته جلدته حدين، لعظيم ما ارتكب، وجيل ما احتقب: يعني ما اكتسب من الوزر والإثم، يرمى من قد رفع الله محله وأرسله من خلقه رحمة للعالمين وحجة للمجتهدين.

لم يقتصر الخيال الأسطوري للفكر الإسلامي على اتهام داود عليه السلام باغتصاب زوجة رجل آخر من جنوده، وضمها إلى نسائه - اللاتي بلغن ٩٩ كما تقول الرويات - بعد تدبير مؤامرة للتخلص من زوجها، وهو أمر تأبي الرجال ذوا

المبادئ الأخلاقية أن يفعلوه، فضلاً عن نبي موحى إليه ! وهم - أى رواة هذه القصة -، وإن كانوا قد استبعدوا قصة مضاجعة داود لها، وهى على ذمة رجل آخر، كما نص على ذلك فى الكتاب المقدس ( سفر صموئيل الثانى ) إلا أنهم نسبوا إليه أفعالاً لا تليق به كنبى، ألا وهى أنه سأل الزوج أن يتنازل له عن زوجته، على الرغم من أن عنده عدداً كبيراً من النساء فى رأى، وفى رواية أخرى أنه خطب هذه المرأة بعد أن خطبها آخر، فهذه تصرفات لا تليق برجل متدين - أو على الأقل يحرص على عمد التعدى على حق الآخرين -، فضلاً عن رسول اصطفاه الله من خلقه <sup>١١٧</sup>، وذلك كله تبريراً - أو تفسيراً - لتسور الخصمين على داود فى محرابه، لسؤاله عما يراه فى رجل يملك تسعاً وتسعين نعجة، ويريد أن يأخذ من آخر نعجته التى لا يملك سواها، مفسرين ذلك بأن التعبير بالنعجة كناية عن المرأة، فالنعاج التسع والتسعين كناية عن النساء اللاتى لدى سليمان، والنعجة الواحدة كناية عن المرأة التى تخلص من زوجها ليتزوجها، وذلك ضرب من الخيال لا أساس له، فلم يشر القرآن الكريم إلى شيء من ذلك، فإذا اعتبروا ذلك من قبيل الجواز اللغوى، فهذا غير صحيح،

( ١١٧ ) يرى الرازى أن مانسبه الرواة إلى داود عليه السلام فى هذه القصة باطل من عدة وجوه: الأول: أن هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق الناس، وأشدهم فجوراً لاستنكف منها، والرجل الحوشى الخيث الذى يقرر تلك القصة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ فى تزويه نفسه، وربما لعن من ينسبه إليها، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم إليه. الثانى: أن حاصل القصة يرجع إلى أمرين: إلى السعى فى قتل رجل مسلم بغير حق، وإلى الطمع فى زوجته، أما الأول، فأمر منكر، قال عليه السلام: " من سعى فى دم مسلم، ولو بشرط كلمة، جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه: آيس من رحمة الله " وأما الثانى، فمنكر عظيم، قال عليه السلام: " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده "، وإن أوربا لم يسلم من داود، لا فى روحه، ولا فى منكوحه. والثالث: أن الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشر المذكور، ووصفه أيضاً بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة، وكل هذه الصفات تنافى كونه عليه السلام موصوفاً بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح. " [ ج ٢٦ ص ١٦٥ ]

لأنه ليس هناك قرينة تصرف التعبير بالنعاج عن معناه الحقيقي إلى المعنى المجازي.

لم يقتصر الفكر الإسلامي على هذا التصور الخيالي في تفسير هذه الآيات، بل نسج أسطورة أخرى حول حقيقة الخصم في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أُنْتَكَبُوا أَلْخَصْمِ﴾، فقد قال بعض الرواة: "إن جماعة من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبي الله داود عليه السلام، وكان له يوم يخلو فيه بنفسه، ويشغل بطاعة ربه، فانتهزوا الفرصة في ذلك اليوم وتسوروا المحراب، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواماً يمنعونهم منهم، فخافوا فوضعوا كذباً، فقالوا: خصمان بغى بعضنا على بعض....." ١١٨

وروى أنهما كانا ملكين نزلا من السماء، وأرادا تنبيه داود عليه السلام على قبح العمل الذي أقدم عليه، وأنكر آخرون أنهما كانا ملكين، محتجين بأنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين في قولهما: خصمان؛ فإنه ليس بين الملائكة خصومة، ولكانا كاذبين في قولهما: ﴿بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾، ولكانا كاذبين في قولهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ﴾، فثبت أنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين، والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ (٢٧) [الأنبياء: ٢٧]، ولقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٦) [التحریم: ٦]

أجاب الذاهبون إلى القول الأول عن هذا الكلام بأن قالوا: إن الملكين إنما ذكروا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل، لا على سبيل التحقيق، فلم يلزم الكذب.

وأجيب عن هذا الجواب بأن ما ذكرتم يقتضى العدول عن ظاهر اللفظ، ومعلوم أنه على خلاف الأصل. أما إذا حملنا الكلام على أن الخصمين كانا رجلين دخلا عليه لغرض الشر، ثم وضعنا هذا الحديث الباطل، فحينئذ لزم إسناد الكذب إلى شخصين فاسقين، فكان هذا أولى من القول الأول. " ١١٩

وبناءً على ما سبق يمكن القول: كان الخصمان رجلين من رعية داود عليه السلام نشأ بينهما نزاع بسبب جشع أحدهما ومحاولة الاستيلاء على ما عند الآخر، رغم قلته، ووفرة ما عنده من هذا الصنف، واشتد النزاع بينهما لدرجة أنهما لم يصبرا حتى يخرج داود عليه السلام من محرابه، فتسوراه ليعرضاً على داود مشكلتهما، فلما قضى بينهما ظن أن الله أراد أن يفتنه فأرسل إليه ملكاً على هذا النحو، ثم تبين له أن هذا الظن غير صحيح، ١٢٠،

( ١١٩ ) المصدر السابق جـ ٢٦ ص ١٧٠ - ١٧١ .

( ١٢٠ ) ذهب الرازي إلى تفسير الآية على نحو آخر، فقال: "... ليس في لفظ القرآن ما يمكن أن يحتج به في إحقاق الذنب بدادود إلا ألفاظ أربعة. أحدها: قوله: ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾، وثانيها: قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ ﴾. وثالثها: ﴿ وَأَنَابَ ﴾، رابعها: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾، وإنما ثم نقول: وهذه الألفاظ لا يدل شيء منها على ما ذكروه، وتقريره من وجوه: الأول: أنهم لما دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق، وعلم داود عليه السلام ذلك، دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم، إلا أنه مال إلى الصّح والتجاوز عنهم طلباً لمرضاة الله، وكانت هذه الواقعة هي الفتنة، لأنها جارية بجرى الابتلاء والامتحان، ثم استغفر ربه بما هم به من الانتقام منهم، وتاب عن ذلك الهم وأناب، فغفر له ذلك القدر من الهم والعزم. والثاني: أنه وإن غلب على ظنه أنهم دخلوا عليه ليقتلوه، إلا أنه ندم على ذلك الظن، وقال: لما لم تقم دلالة، ولا أمانة على أن الأمر كذلك، فيسما علمت بهم حيث ظننت بهم ذلك الظن الرديء، فكان هذا هو المراد من قوله: ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ منه فغفر الله له ذلك. الثالث: أن دخولهم عليه كان فتنة لداود عليه السلام، إلا أنه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله، كما قال في حق محمد عليه السلام: ﴿ وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴾، والثاني: أن داود عليه السلام استغفر لهم وأناب، أى رجع إلى الله تعالى في طلب مغفرة ذلك الداخل القاصد للقتل، وقوله: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أى غفرنا له ذلك لأجل احترام داود ولتعظيمه

فاستغفر ربه <sup>١٢١</sup>، فغفر الله له وهذه الآيات التي اشتملت على ثلاثة موضوعات، الأول: ذكر الله ما أنعم به على داود وهي الآيات من رقم ١٧ إلى رقم ٢٠، وهذه الآيات (من رقم ٢١ إلى رقم ٢٥) تبين الجانب الثاني من الجوانب التي ذكرتها سورة "ص" عن داود عليه السلام، وهو توضيح أن الله أراد أن يختبر قدرة داود على الحكم، وبيان مدى إمكاناته على الفصل في قضايا التراع بين الرعية، توطئة للحديث عن الجانب الثالث، ألا وهو تعيينه خليفته في

(١٢١) قال وهب بن منبه: لما تاب الله عليه بكى على خطيئته ثلاثين سنة، لا ترقأ له دعة ليلاً ولا نهاراً، وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبعين سنة، وقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أقسام: يعنى أربعة أيام، فجعل يوماً للقضاء بين الناس، ويوماً لنسائه، ويوماً يسيح في الغياق والجبال والقفار والسواحل، ويوماً يتخلو في داره، وفيها أربعة آلاف محراب، فيجتمع إليه الرهبان، فينوح بعضهم على بعض، ويساعدونه على ذلك، فإذا كان يوم سياحته يخرج إلى الغياق فيرفع صوته كالزماير ويكبي، فيكبي معه الشجر والمدر والطير والوحش حتى يسيل من دمعه مثل الأنهار، ثم يجيء إلى الجبال فيرفع صوته كالزماير فيكبي وتكبي معه الجبال والحجارة والدواب والطير حتى تسيل الأودية من بكائهم، ثم يجيء إلى الساحل فيرفع صوته كالزماير، فيكبي وتكبي معه الحيتان ودواب البحر والطير والماء والسباع، فإذا أمسى رجع، فإذا كان يوم توحه على نفسه نادى ماديه: إن اليوم يوم نوح داود على نفسه، فليحضر من يساعده، قال: فيدخل الدار التي فيها محاربي، فيسبط له ثلاثة فرش من مسوح، حشوها الليف ليجلس عليها، وتجيء الرهبان، أربعة آلاف راهب. عليهم البرانس، وعليهم المسوح، وفي أيديهم العصي، ثم يجلسون في تلك المحاربي، ثم يرفع صوته بالبكاء والنوح، فيرفع الرهبان معه أصواتهم، فلا يزال يكبي حتى يفرق الفرش من دمعه، ويقع داود فيها مثل الفرخ بضرب، فيجيء ابنه سليمان عليه السلام فيحمله، فيأخذ داود من تلك الدموع بكفه، ثم يمسح بها وجهه، ويقول: يارب اغفر لي ما ترى، فلو عدل بكاء داود ودموعه ببكاء أهل الأرض ودموعهم لعدلها". [الثعلبي ص ٢٨٥]

أوجد من يفوق هذا في الخيال الأسطوري؟ من أين للفكر الإسلامي هذا الخيال الأسطوري الذي بلغ مداه، على الرغم من أن القرآن الكريم لن يشير إلى شيء من هذا، لا من قريب، ولا من بعيد؟ إنه الولع بالسرد الأسطوري للسيطرة على الوجدان الديني للعامة، وكم عانى الفكر الديني في المجتمع الإسلامي من هذه الظاهرة، التي كبلت المسلمين، ومنعتهم من الانطلاق نحو الرقي والتقدم، كما أعطت سلاحاً لأعداء الإسلام ليحشوا على مبادئ الإسلام الصافية، التي تتفق مع المنطق العقلي السليم، وتتناغم مع مسيرة التقدم في جميع مجالات الحياة.

الأرض بناءً على نجاحه في الفصل بين المتنازعين اللذين تسورا عليه المحراب، وهو ما سنبينه في الأسطر التالية.

الموضوع الثالث: الحديث عن تنصيب الله داود عليه السلام خليفة في الأرض، وتوجيه الوصية له بأن يحكم بين الناس بالحق، ولا يتبع الهوى حتى لا يضل عن سبيل الله، وتلك وصية للحكام جميعاً، يقول الله تعالى:

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٣٦﴾﴾ [ص: ٢٦]

فهذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المتزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيل الله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد.

obeikandi.com

## النملة والهدهد

يقول الله تعالى :

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا  
 أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُم لَّا يَحْطِمَنَّكُمْ  
 سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَبَسَهُ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي  
 أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ  
 وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ  
 أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لِأَعَذِبَنَّ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ  
 لِأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [النمل: ١٧ - ٢١]

قال ابن كثير: " أورد ابن عساكر من طريق إسحق بن بشر، عن سعيد،  
 عن قتادة، عن الحسن: أن اسم هذه النملة حرس، وأنها من قبيلة يقال لهم: بنو  
 الشيصان، وأنها كانت عرجاء، وكانت بقدر الذئب.... ومن قال من  
 المفسرين: إن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره، وأن هذه النملة كانت  
 ذاجتاحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها. وعن نوف  
 البكالي أنه قال: كان نمل سليمان أمثال الذئاب....

قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد  
 مهندساً يدل سليمان على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه، فنظر له الماء في تخوم  
 الأرض، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم  
 مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلمه عليه، أمر سليمان عليه السلام الجان فحفروا  
 له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره، فترل سليمان عليه السلام يوماً بفلاة من

الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يرد<sup>١٢٢</sup>، فقال: ﴿مَالِكٌ لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ  
 أَمْ كَانَ مِنَ الْفَكَائِبِينَ﴾. حدث يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا، وفي  
 القوم رجل من الخوارج يقال له نافع بن الأزرق، وكان كثير الاعتراض على  
 ابن عباس؛ فقال له: قف يا ابن عباس، غلبت اليوم، قال: ولم؟ قال: إنك تحير  
 عن الهدهد أنه ير الماء في تخوم الأرض، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ ويحثو  
 على الفخ تراباً، فيجيء الهدهد ليأخذها، فيقع في الفخ فيصيده الصبي، فقال  
 ابن عباس: لولا أن يذهب هذا فيقول: رددت على ابن عباس لما أجبته، ثم قال  
 له: ويحك! إنه إذا نزل القدر عمى البصر وذهب الحذر، فقال له نافع: والله لا  
 أجادلك في شيء من القرآن أبداً.....<sup>١٢٣</sup>

لم يوجد في عصر سليمان ومملكته غير هدهد واحد من هذا النوع من  
 الطيور؟

وما الذي ميزه عن بقية أفراد نوعه؟

نرى الإجابة عن هذين السؤالين في ثنايا تفسير ابن كثير؛ إذ على الرغم من  
 تأثره بالصورة العامة في المجتمع الإنساني - والإسلامي أيضاً -، حيث يميل

(١٢٢) روى الثعالبي: أن سليمان عليه السلام "سار نحو اليمن يوم نجم سهيل، فوافق صنعاء وقت الزوال، وذلك  
 مسيرة شهر، فرأى أرضاً بيضاء حسنة تزهو بخضرتها، فأحب الزول بها ليعلى ويتغذى، فطلبوا الماء فلم يجدوه  
 (كيف يستقيم ذلك والأرض محضرة، أليس وجود ماء سبباً لخضرتها!)، وكان الهدهد دليله، وكان يرى  
 الماء من تحت الأرض، كما يرى أحدكم كأسه بيده، فينقر الأرض، فيعرف موضع الماء وعمقه، ثم تجيء  
 الشياطين فيسلخونه كما يسلخ الإهاب يستخرجون الماء. قال سعيد بن جبير: لما ذكر ابن عباس هذا الحديث  
 قال له نافع بن الأزرق: كيف يصر الماء من تحت الأرض ولا يصر الفخ إذا غطى له بقدر أصبع من تراب؟  
 قال: ويحك! إذا جاء القدر عمى البصر. وروى قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "أفهاكم  
 عن قتل الهدهد، فإنه كان دليل سليمان على الماء"، فطلب سليمان الهدهد فلم يجده، فترعده...." [٣١١].

الناس إلى الجانب الأسطوري في تفسير النصوص الدينية، فقد ظهر جانب عقلاني في ثنايا هذا التفسير، عندما ذكر أن الهدهد كان مهندساً خبيراً بالبحث عن المياه في باطن الأرض في المناطق الصحراوية، وهذا يقودنا إلى الميل إلى رأى من يقول: إن كلمة " الطير " كانت علماً على سلاح المهندسين في جيش سليمان عليه السلام، وأن الهدهد كان فرداً من هذا السلاح، يمتاز بالخبرة في معرفة مواطن المياه في باطن الأرض. كذلك يرى هذا الفريق في تفسير النملة التي حذرت قومها: أنه كان هناك وادياً مكتظاً بالسكان، ولهذا أطلقوا عليه وادى النمل، فالنملة لا تخرج عن كونها واحدة من سكان هذا الوادى. <sup>١٢٤</sup>

### تسخير الريح والجن

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَسَلِّمَنَّ الَّرِيحُ غُدُوهاَ شَهْرٍ وَرَوْاحُهاَ شَهْرٍ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنَ آمْرِنَا نَذِقْهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجِفَانِ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبا: ١٢ - ١٣]

قال الحسن البصرى: " كان - أى سليمان - يغدو على بساطه من دمشق، فيترل باصطخر يتغذى بها، ويذهب راثحاً من اصطخر <sup>١٢٥</sup> فيبيت بكابل، وبين

(١٢٤) راجع: النجار ص ٣٣٦ نقلاً عن مقالة لوكى باشا في جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ١٩٣٣/٨/٦ م  
 (١٢٥) اصطخر: مدينة قديمة تقع في جنوب إيران، في محافظة فارس، على بعد خمسة كيلو مترات إلى الشمال من أنقاض مدينة برسيبوليس. كانت مدينة مزدهرة خلال فترة الدولة الأخمينية. ثم أصبحت عاصمة الدولة الساسانية قبل نقل العاصمة إلى قطيفون. أُحْرِقت المدينة أثناء الفتح الإسلامى لبلاد فارس. بعد إعادة بنائها فقدت المدينة أهميتها إلى مدينة شراز. وهى اليوم موقع أنرى.

اصطخر وكابل شهر كامل للمسرع، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع".<sup>١٢٦</sup>

قال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوَهَا شَهْرًا وَرَوَّاحَهَا شَهْرًا﴾ كان له (أى سليمان) مراكب من خشب، وكان فيه ألف ركن، في كل ركن ألف بيت، تركب فيه الجن والإنس، تحت كل ركن ألف شيطان يرفعون ذلك المركب هم والعصار، فإذا ارتفع أتت الريح الرخاء، فسارت به، وساروا معه، يقبل عند قوم بينه وبينهم شهر، ويمسى عند قوم بينه وبينهم شهر، ولا يدرى القوم إلا وقد أظلمهم، معه الجيوش والجنود.... كان يغدو فيقيل في إصطخر، ثم يروح فيكون رواحها في كابل....<sup>١٢٧</sup>

هل كانتا - إصطخر وكابل - ضمن مملكته؟

لم يقل أحد بذلك بل إن الباحث في تاريخ الشرق الأوسط يجد أنه على طول ما عاش الإسرائيليون في فلسطين، وما خاضوا من حروب مع جيرانهم العرب وغيرهم، لم نجد لهم ذكراً في كتب المؤرخين المعاصرين لهم - كبقية الشعوب الأخرى - مما يدل على أن الشعب اليهودي لم يكن سوى شعب قبلي، حروبه عبارة عن غزوات قبلية ضئيلة، يمكن أن تكون أشبه بتلك التي كانت تحدث في الجزيرة العربية في زمن الجاهلية، بل إن التوراة نفسها لم تذكر أن اليهود قد سيطروا على فلسطين كلها في يوم من الأيام، على الرغم من صغر مساحتها. بل إن سليمان في مجده الذي أضفته عليه الأساطير العبرية الخيالية لم يكن في الواقع إلا ملكاً صغيراً يحكم مدينة صغيرة، وأن ما أضفته الأساطير عليه من مجد وجاه ليس إلا تقديراً نسبياً يقاس بمن حوله من الملوك والأمراء القبليين في

(١٢٦) ابن كثير ج ٥ ص ٥٣٤

(١٢٧) الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن ج ٢٢ ص ٤٨

فلسطين وما حولها، كما أن هيكله - إذا قيس بأبعاده التي جاءت في سفر الملوك - لا يعدو أن يكون بحجم كنيسة صغيرة من كنائس الضواحي في المدن الأوربية، على حد تعبير المؤرخ الكبير " ويلز Wells " الذي يضيف بأنه لا يقارن بضخامة المعابد البابلية أو المصرية القديمة. وقد أكد العالم الأثري المشهور " برستد Breasted " أن سليمان الحكيم لم يكن سوى والياً من الولاة الخاضعين للحكم المصري.<sup>١٢٨</sup>

كثير من النصوص الدينية لا تحتل إلا معنى واحداً، فلا يجوز فيها المجاز، ولا غيره من التأويلات المستندة إلى القواعد اللغوية التي تصرف اللفظ عن معناه الأصلي إلى آخر مجازي، الأمر الذي يجعل النص مؤدياً لمعنى واحد، لا يجوز لعلماء الدين تجاوزه، وإلا خرج عن السياق، وتصادم مع ما هو معروف من الأساليب اللغوية. وعليه، فلا يمكن تطبيق النص إلا على نظام معين من حياة المجتمعات الإنسانية المختلفة، فهو محصور بين أطر حياتية معينة، ومرتبطة بزمن ومكان محدودين، ولذا فعندما تتطور أساليب الحياة في المجتمعات البشرية، يصبح النص المقدس غير صالح للتطبيق. كذلك لا يمكن تطبيقه على كل المجتمعات الإنسانية المختلفة في حياتها، والمتعددة في ثقافتها، والمتباينة في وضعها الجغرافي والتاريخي.

ولما كان الإسلام لكل البشر، على اختلاف ثقافتهم، وتنوع حضاراتهم، وتباين مناطقهم الجغرافية، وتطور نظام حياتهم عبر القرون، فقد جاء القرآن الكريم - في كثير من آياته - يحتمل أكثر من معنى، بحيث يستطيع أن يفهم كل جيل من نصوصه ما يناسب حياته ويتفق مع زمانه، ويتلاءم مع حضارته،

وصدق على بن أبي طالب عليه السلام في قوله: " القرآن حمال أوجه"، وتلك ميزة ترفعه إلى حد الإعجاز؛ إذ لا يستطيع بشر، مهما أوتى من البلاغة والفصاحة أن يؤلف نصاً له هذه الصلاحية، إذ لا يتأتى ذلك إلا من العليم القدير عليه السلام، فهو القادر وحده على ذلك، وتلك إحدى جوانب الإعجاز في القرآن الكريم التي تبرهن على أنه من الله وليس من البشر؛ إذ أنه صيغ بأسلوب تفهمه كل طبقات المجتمع، ويستخرج منه كل إنسان في كل عصر ما يلائم حياته، ويتفق مع ثقافته ووضع الاجتماعى، ويتلاءم مع الاتجاهات الفكرية في عصره..... إلخ، كما أن المفكر يفهمه على نحو آخر يتناسب مع قدرته الفكرية، ويلائم عصره وبيئته الجغرافية، فإذا طبقنا هذا التصور على قوله تعالى:

﴿وَلِسَلِيمَانَ آلرِيحَ عُدُوها شَهْرٌ وَوَأَحْها شَهْرٌ﴾ نجد أن ما سبق بيانه لهذه الآية كان مناسباً للعصور السابقة، وللبعثات التي تميل إلى هذا النوع من الأساطير، أما في عصرنا الحالى فيمكن فهم هذا النص على نحو مخالف، ألا وهو: أن سليمان عليه السلام كان يملك مراكب شراعية يسيرها الريح، فأطلق القرآن الكريم الريح على المراكب، وهذه قاعدة لغوية، إذ يمكن (لغوياً) إطلاق السبب على المسبب<sup>١٢٩</sup>، فالريح سبب في تسيير المراكب الشراعية، والمعنى:

(١٢٩) أمثلة لإطلاق اسم السبب على المسبب، وإن شئت فقل: إطلاق العلة على المعلول، سواء كانت العلة فاعلية، أو قابلة، أو صورية، أو غاية، فمثال الأول قولهم: نزل السحاب، أى المطر، فإن السحاب فى العرف سبب فاعلى فى المطر، كما يقال: النار تحرق الثوب، ومنه إطلاق النظر على الرؤية، كقوله تعالى: ﴿رُجُوءٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ [٢٢] إِنَّ رَبَّها نَاطِرَةٌ [٢٣] ﴿[القيامة: ٢٢ - ٢٣] أى له رائية، ونحو: نظرت إلى فلان، أى رأته، لأن النظر فعل الفاعل، وهو سبب الرؤية. ومثال الثانى قولهم: سال الوادى، فإن السائل هو الماء، والوادى سبب قابل لمسيل الماء فيه... ومثال الثالث: إطلاق اليد على القدرة كقوله تعالى ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، واليد صورة خاصة يتأتى بها الإقدار على الشيء.... وهو سبب-

ولسليمان مراكب شراعية تسيرها الريح في غدوها ورواحها، وهذا التفسير يقنع كل مفكر وكل فيلسوف، فلا يستطيع أحد الاعتراض على النص بحجة أن تسيير الريح له نظام خاص على سطح الكرة الأرضية، لا يمكن لأحد التحكم فيه وتسييره على هواه، وإلا اختل نظام الكون.

وعليه، فالنص يخاطب جميع الناس، على اختلاف ثقافتهم، وتفاوت درجة حضارتهم، وتنوع تقدمهم في البحث العلمى، فالقرآن الكريم مليء بالكنوز الفكرية والصور البيانية لا ينضب معينها، فكلما تقدم الزمن، وارتفع ثقف الاتجاهات الفكرية قيض الله له من يستطيع الكشف عن بعض هذه الكنوز لتلائم العصور وتنسجم مع التقدم الحضارى.

=صورى.... ومثال الرابع: تسمية العصور حمراً، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِكَاثِبًا﴾ [الأعراف:

٢٦]، وقولهم: رعينا الغيث، أى النبات الذى سببه الغيث، قال الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم \* رعيناها وإن كانوا غضابا

وهو المطر، لأنه سبب غالى للمطر....

obeikandi.com

## عفريت من الجن

لم يأت هذا التعبير في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، وذلك عندما سأل سليمان عليه السلام من حوله عمن يأتيه بعرش بلقيس: ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٣٨) قَالَ عِفْرِيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَأْتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَأْتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ [النمل: ٣٨ - ٤٠]

فمن هو هذا العفريت؟ وما طبيعته؟

العفريت: مفرد، جمعه: عفاريت، وتستخدم كلمة: عفريت للدلالة على شخصيات معينة، غالباً ما تكون خرافية أو خيالية، وأحياناً يمكن أن تذكر كشخصيات حقيقية، لها وجودها في عالمتنا، وموضع خرافية أو حقيقة وجودهم تتعلق عادة بمعتقدات الشعوب، وطريقة تفكيرهم، أو عقيدتهم وما ورثوه من أسلافهم. وقد تم ذكر العفاريت في أكثر المواضع من القصص، والحكايات الشعبية، والأساطير المختلفة، والتراث المتناقل بين الأجيال، كما تم ذكرهم في كثير من الأدبيات.

وقد تنوعت شخصيات العفاريت وأشكالها، فمنهم من هو طيب وخير، ومنهم من هو شرير وخبيث. وبالنسبة لأشكالهم، فتارة يتم ذكرهم على أنهم ذووا وجه حسن، وأخرى بأنهم ذووا وجه قبيح، كما أن منهم الطويل جداً، ومنهم القصير جداً، بعضهم يشبه البشر، والبعض الآخر يشبه، أو فيه خصلة من أحد الحيوانات، وكثير منهم قادر على تحويل أشكاله وصوته. ويعود هذا

الاختلاف والتنوع في شخصياتهم وأشكالهم إلى طبيعة دورهم الذى يلعبونه في القصة المحكية عنهم، وهكذا فعندما يتم ذكرهم على أنهم سيئون، غالباً ما يتم تصويرهم على أنهم قبيحون، والعكس بالعكس.

والعفريت كان - وما زال - له مكانة هامة في الإنتاج الأدبي والفلكلورى للشعوب، فهو يظهر في القصص المحكية، وفي الأفلام السينمائية، وأفلام الكرتون، وألعاب الفيديو، كما تم تجسيد شخصيته في الكثير من المسرحيات.

العفريت من الفعل الثلاثى: ( ع ف ر )، ويجمع على عفاريت، ومعنى الكلمة: الخبيث - الماكر - الداهية - الداهية الخبيث الشرير - الشديد القوى - المتشيطان، وأيضاً يأتي بمعنى عرف لديك. وتستعمل الكلمة في العربية المعاصرة بمعنى المبالغة، سواء بالحركة، أو بالدهاء والمكر، بالإضافة إلى استعمالها للدلالة على العفريت بمعناه القصصى.

ونظراً لتعدد القصص والحكايات التى تتحدث عن العفاريت في مختلف أنحاء العالم، فقد أدى ذلك إلى تنوع في الكلمات الدالة على العفاريت، سواء في القصص العربية، أو في قصص الشعوب الأخرى، ويمكن لكل الكلمات التالية أن تكون دالة على كلمة عفريت بمعناها لقصصى: مارد - جنى - الساحر - المخلوق الصغير - القزم - الطيف - الخيال - الظل - السواد - الشبح - الشيطان.

وقد استعملت كلمة " العفريت " في الأمثال الشعبية مثل:

- " يلقى يخاف من العفريت يطلعه "

- " على كف عفريت "

- " زى العفريت "

- " راكبه عفريت " أو " راكبها عفريت "

- " له في كل خرابة عفريت "
- " أول مرة بدر منور، وتاني مرة رغيف مدور، وثالث مرة عفريت مصور "
- " عيشهم في كبريت، اللي ياكلوه يسير عفريت "
- " سيبي وروقي وخلي العفاريت تركبي "
- " الزيت والكبريت شردوا العفاريت "
- زي عفاريت القيلة مايتهدوش " ١٣٠

والجن: وصف يطلق على كل شيء صفته الاستتار، كالجنين في بطن أمه، وكالأفاعى التي تختبئ في جحور تحت الأرض: ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا ۝۱۰ ﴾ [النمل: ١٠ - ٩٣ والنصص: ٣١]، وكذلك تطلق على الليل إذا اختلط ظلامه، فيقال: جنَّ الليل، أى ستر كل شيء، وكذلك تعنى كمفردة عكس "المؤانسة"، يعنى الابتعاد عن التجمعات البشرية التي تأنس ببعضها. ومن هذا الباب يطلق العرب كلمة: "جن" على الغرباء، كما ورد في سورة الجن، التي تتحدث عن وفد نصيبين، شمال العراق، الذين أتوا إلى مكة تحت جنح الظلام، وقد قابلهم الرسول ﷺ خارج مكة، ثم في الصباح أرى أصحابه مكاهم، وآثار نيرانهم. فهل للجن آثار يمكن رؤيتها بالعين المجردة؟ إذن الجن من البشر الغرباء. وكذلك تطلق على كل مستكبر مستر، كما في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۝۵۰ ﴾ [الكهف: ٥٠]، وكذلك تطلق على كل ما لا يمكن رؤيته، كالجراثيم، كما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة التي تحث على النظافة.

فجر الأستاذ الدكتور محمد البهى فى أوائل سبعينات القرن العشرين قضية فكرية هزت مسلمات لدى قطاع كبير من المسلمين، فانبرى كثير من العلماء للرد عليه بالشرح والتأويل وسرد الأدلة، ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة واضحة تؤكد وجود عالم ثالث، هو عالم الجن، باعتبار أنه مكمل لعالمى: الإنسان والملائكة، ذلك أنه جاء فى تفسيره لسورة الجن، بما يبرأى لم يسبقه أحد إليه عبر تاريخ الفكر الإسلامى، ودعمه بمسلمات عقلية وآيات قرآنية لم يستطع أحد من العلماء الذين انبروا للرد عليه دحضها أو النيل من مضمونها، فقد جاءت ردودهم فى معظمها عاطفية، ومستندة إلى روايات ضعيفة السند.

ولهذا كان من مقتضيات البحث العلمى - ونحن نتحدث عن الجن - أن نعرض فقرات ملخصة لما جاء فى تفسيره لسورة الجن:

١. الجن موجود قطعاً، وهم قوى مخلوقة من نار صافية، ولهذا كانوا قوى روحية.

٢. وعالم الجن قائم إلى يوم البعث، لامية فى ذلك.

٣. أما موجوداته الأصلية فهى طبائع الملائكة، وهى: العناصر الخيرة

المطبعة. وطبيعة إبليس كذلك، وهو العنصر الشرير فيها. وهو قد

وصل إلى الشر بعد أن عصى ربه، فلم يسجد لآدم كما سجدت

جميع الملائكة عداً معتزاً بأنه خلق من نار، بينما آدم خلق من

طين: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا

لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا

مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ

﴿١٢﴾ [الأعراف: ١١ - ١٢]، فإبليس خلق من نار، وكان من

الملائكة. وإذن الملائكة جميعاً مخلوقون من نار صافية مشعة. وهو

من الجن أيضاً - والملائكة كذلك - لقوله تعالى: فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴿٥٠﴾ [الكهف: ٥٠]، فالأمر الموجه إلى الملائكة في قوله: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ يشمل إبليس حتماً، وإلا لم يكن عاصياً بمخالفة السجود، لأنه عندئذ لم يكن داخلاً ضمن نطاق مَنْ أمرهم الله بالسجود لآدم، فأبليس مَلَكٌ عصى ربه، وإبليس جان من عالم غير المرئيات. والملائكة من الجن، كما هم من النار الصافية.

٤. ويدخل في عالم الجن - ملحقاً بطبائعه الأصلية - من يتخفى من عالم الإنسان: في إيمانه، وكفره، وفي خيره وشره،: باعتبار: أن هذا الذى يتخفى غير ظاهر وغير مرئى. وذلك كشياطين الجن، فإنهم من الإنسان، يُخفون شرهم وكيدهم لدين الله وللمؤمنين به، وصددهم عن سبيل الله، وجاء في قوله تعالى: إنه يراكم (أى الشيطان، وهو إبليس يراكم) هو وقبيله (هو وأعوانه من الشياطين) من حيث لا ترونهم (لأن إبليس بحكم طبيعته من عالم الجن، وأعوانه بحكم تخفيهم في الشر، ألحقوا بهذا العالم وأصبحوا شياطين الجن).

ومثل هذا الفريق الشرير من الناس في إلحاقه بعالم الجن لتخفيه في الكفر والإيداء، والإغراء: فريق آخر من الناس أيضاً تخفى في إيمانه، ولم يظهر في تعرفه على الهداية، وفي تبشيره بالدعوة لدين الله. وهو هذا الفريق الذى أعلن عنه الوحى في سورة الجن، في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: ١ - ٢]، وكذلك في سورة الأحقاف في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا

إِيَّاكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنَّ (أى من العالم غير المرئى، ولكن ليس من القوى النارية) يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ (أى فلما انتهت تلاوته) وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ (أى عادوا مسرعين إلى قومهم) قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ (وما بين يدى القرآن: هو التوراة والإنجيل. وكان التوراة على وجه أخص لأنه كتاب هداية وتشريع كالقرآن) يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ (وهو العقيدة والشريعة) وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ (وهو الهداية والسلوك السوى) يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزِّكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

[الأحاف: ٢٩ - ٣٢]

فهذا الفريق الذى تخفى، ولم يكن معروفاً للمكيين - حتى كذلك لرسول الله ﷺ - عند سماعه القرآن بمكة، ثم فى إيمانه وفى دعوته وتبشيره بين قومه.... هو من البشر، وليس من القوى النارية، ويرجح إلى درجة كبيرة أن يكون من " يثرب "..... فرسالة الإسلام بما فيها من دعوة إلى الإيمان بوحدة الألوهية، وبما فيها من وعد للمؤمنين، ووعد لمن بقى على كفره، هى للناس ولعالم الإنس، وليست لتلك القوى الأخرى التى خُلقت من نار، وهى الملائكة التى توجد فى العالم الثانى، وهو العالم غير المرئى، أو عالم الجن، وذلك لأنه:

أولاً: أن القوى النارية، وهى الملائكة، اختبرت فى طاعتها لله، عندما أمرها سبحانه بالسجود لآدم، وقد أطاعت جميعها، عدا واحداً منها فقط، وهو إبليس. والتكليف بالرسالة الإلهية اختبار قائم لمن يطيع، ولمن يقبى على كفره. وذلك وضع ليس موجوداً بين الملائكة، بعد أن سجدت لآدم. وهى لا تتوالد ولا تتناسل حتى يكون لها أجيال متتابعة، حتى

يمكن أن يستمر اختبارها، لأن تعبير القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ .. وبقوله في سورة الحجر: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر: ٣٠ - ٣١].. لأن تعبيره عن الملائكة بصيغة الجمع وبصفة الشمول: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ يفيد أن ما أراده الله من إعداد الملائكة في كونه متكامل من أول خلقهم. بينما لم يوجد عندئذ - أى عند تكامل الملائكة - من عالم الإنس إلا آدم وحواء.... إلا ذكر وأثنى فقط، مما يدل على أن هذا العالم سيتكاثر ويتزايد تباعاً، جيلاً بعد جيل. ولذا أرسل الله إلى البشر عدة رسل برسالة الله في عهود مختلفة من تاريخهم، وجاءت رسالة محمد ﷺ خاتمة الرسالات بدين الله... إلى يوم البعث.

ثانياً: أن الملائكة لا ذنوب لها، لا قبل أمرها بالسجود لأنها لم تعص، ولا بعد أن أطاعت فسجدت. فما معنى غفران الذنوب في قوله تعالى، كما جاء على لسان فريق من الجن هنا في سورة الأحقاف: ﴿يَقَوْمًا أٰجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَعَٰمِنُوٓا۟ بِهِۦٓ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾، ثم مامعنى قول هذا الفريق أيضاً هنا: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَاءُ ۗ أُو۟لَٰئِكَ فِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ... علماً بأن الذى عصى من الملائكة واحد، وقد عُرف، ثم لحقه بالفعل عقاب من الله، على أن يكون العقاب الأخير له في جهنم.

ثالثاً: أن رسالة الله للبشر تحددت في مشيئته بعدما أخفق آدم - ومعه حواء - في الاختبار الذى وضع أمامه، وهو عدم اقتراحهما من شجرة معينة بين أشجار الجنة.....

رابعاً: لو كانت الملائكة - أو لقوة النارية الخفية، وهى الجن - مكلفة برسالة إلهية، لكان لها رسول منها، وليس من البشر، أى من عالم آخر غير عالمها. وقد كانت سنة الله فى رسالته: أن لا يرسل رسولاً إلى قوم إلا بلسانهم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِمْ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤]، وذلك حتى تقوم الحجة على من يكلفون بالرسالة، ورسالة الرسول محمد ﷺ هى رسالة عامة، ولكن للناس دون غيرهم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبا: ٢٨]... والحصر فى التعبير هنا يحول قطعاً دون أن تكون رسالته لغير عالم الإنس.....

وعلى هذا التقابل بين عالم الجن، وهو العالم غير المرئى، وغير المعهود من مخلوقات الله، وعالم الإنس، وهو عالم الظاهر والمعهود من مخلوقات الله، فإن عالم الجن يضم:

أولاً: طبائع الملائكة الخيرة التى لم تعص الله، وبقيت على طاعته.  
 وثانياً: بعض من آمن من البشر برسول الله ﷺ، فى تخف وفى غير عهد بهم، وهم من نزل بهم الوحي لرسول الله ﷺ بمكة، فى سورتي الجن والأحقاف، وكذلك من آمن برسول سابق على هذا النحو، أو يؤمن برسالة الرسول بعده فى تخف من سلطة الحاكم، وفى بعد عن رقابة نظام حكم ملحد يصد عن سبيل الله،

وثالثاً: طبيعة إبليس الذى كان من الملائكة ومن الجن كذلك، وعصى

ربه.....

ورابعاً: شياطين الجن وهم من البشر، تخفوا ويتخفون فى مباشرة الشر للناس،

والصد عن سبيل الله، وهؤلاء شياطين الجن، هم أعوان إبليس وقبيله. وهو معهم يرون الناس، والناس لا يرونهم: ﴿إِنَّهُ دَرَبَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (٢٧) [الأعراف: ٢٧]، وشياطين الجن أشبه بالخلايا السرية التي تعمل تحت الأرض وفي الخفاء على تقويض الإيمان بالله، والكيد للمؤمنين، فهم من الناس، ولكنهم متخفون في مباشرتهم للكيد والصد عن سبيل الله..... أما شياطين الإنس فهم في العالم المرئي، وهم الكبراء، أو الزعماء الذين يصدون عن سبيل الله علناً وفي غير خجل، كما هو وضع المستكبرين مع المستضعفين في المجتمعات البشرية..... وشياطين الإنس يتكاثرون ويشدد ظهورهم، وتشتد بلبلتهم وتشويههم على دين الله، كلما طغت موجة مادية في حياة الناس، وأخذ رجال الدين يحترفون بدينهم خدمة للشيطان" ١٣١.

وعليه، فَمَنْ عَرَضَ عَلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَأْتِيَ بَعْرَشَ بَلْقَيْسَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَكَانِهِ، هُوَ رَجُلٌ غَيْرٌ مَعْرُوفٍ فِي بِلَادِهِ، رَجُلٌ وَاسِعُ الْخَيْلَةِ، وَشَدِيدُ الدَّهَاءِ، مِنْ غَيْرِ الظَّاهِرِينَ فِي مَحِيطٍ مِنْ حَوْلِهِ، وَلَيْسَ - كَمَا يَعْتَقِدُ الْعَامَّةُ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ - مِنْ عَالَمٍ آخَرَ، غَيْرِ مَرْتَبِيِّ، هُوَ عَالَمُ الْجِنِّ.

فإذا قارنا بين ما أجاب به العفريت على سؤال سليمان بأنه سيأتي بعرش بلقيس قبل أن يقوم سليمان من مقامه، وبين ما وعد به الذي عنده علم من الكتاب من أنه سيأتيه به قبل أن يرتد إليه طرفه، لوجدنا فرقاً شاسعاً بين أسلوبين في العمل:

أحدهما: يقوم على " الفهلوة "، ليس له ضابط يحكمه مساره، ولا يقوم على

أساس يرتكز عليه، وهو ما أجاب به العفريت .

الثاني: عمل قائم على أسس علمية، ويرتكز على مقدمات تؤدي بالقطع إلى النتيجة المنشودة، وهذا المنهج منضبط بقواعد علمية، لا ينحرف عنها، ويسير في خطوات محسوبة إلى الهدف المنشود.

أضف إلى ذلك أن الأول لم يحدد زمنًا معينًا لإحضار العرش؛ فقد يقوم سليمان بعد فترة وجيزة، وقد يستمر حاليًا ساعات، ربما تصل إلى نهاية اليوم، وذلك ضرب من الاحتمالات اللانهائية، أما الثاني فقد حدد الوقت تحديداً دقيقاً، وذلك بطرفة العين، وهذا هو لتحديد الذي يتسم به العلم، فضلاً عن السرعة الفائقة.

وهذا هو الهدف من نزول هذه الآيات في القرآن الكريم على محمد ﷺ، إذ ليس الغرض الإخبار عن حدث، فهو ليس سجلاً للأحداث، بل هو عظة وهداية، فأراد الله ﷻ أن يوجه المسلمين إلى أهم شيء في حياة الأمم والشعوب، ألا وهو العلم، فبه تتقدم الأمم، وبواسطته تبني الشعوب حضارتها، وتُشيد تقدمها؛ فمن يركن إلى الخزعبلات والأساطير، فهيئات أن يعيش فضلاً عن أن يحرز تقدماً في مسار حياته.

أما من يسلك طريق العلم، ويتبع منهجه، فسوف يصل إلى حياة رغبة، وعيش كريم، يمنحه القوة على البقاء، ويعطيه العزم للتصدي لتقلبات الدهر، وغدر الشياطين من الإنس والجن.

ولما كان هذا هو الهدف من نزول هذه الآيات لم يبين الله ﷻ مَنْ مِنْ الْإِنثَيْنِ: العفريت أوالذي عنده علم من الكتاب، أحضر العرش؟ لأن هذا ليس مهماً في هذا المجال، ولا ترتبط به فائدة، مادام قد حصل المقصود، ألا وهو إبعاد المسلمين عن الخرافات والأساطير في حياتهم، ودفعهم إلى طريق

البحث العلمي، لأنه هو الذى سيوصلهم بأقصى سرعة إلى ما يبتغون فى حياتهم، وما يتطلعون إليه من رقى وازدهار.

جاءت صياغة الوحى على هذا النحو، ليخاطب كل طبقات المجتمع؛ فمن يميل إلى سماع وترديد الخرافات والأساطير فهم هذا المعنى من النص، ووجد فيه ما يشبع فهمه، ويلبى غرائزه - كما بينا ذلك سابقاً -، وفى الوقت نفسه يستطيع العلماء والمفكرون شرحه على نحو يتفق مع الآفاق الفكرية لديهم، وبما ينسجم مع المتطلبات العصرية فى مجال البحث العلمى، بل إن القرآن الكريم مليء بالأسرار التى لم تكتشف بعد، وهو مجال يسبح فيه الفلاسفة عبر العصور القادمة، فكلما تقدم البحث العلمى، فأظهر الجديد من أسرار ما حولنا من آفاق الطبيعة ومجال الكون الفسيح، اكتسب الباحثون قوة فى التفكير تمكنهم من كشف ما خفى على الأجيال السابقة من أسرار القرآن الكريم، فهو منبع للفكر لا ينضب حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

obeikandi.com

## منسأة سليمان

يقول الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةً الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ [سبأ: ١٤]

يقول المفسرون :

" يذكر الله تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام، وكيف عمى الله موته على الجن المسخرين له في الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئاً على عصاه، وهي منسأته <sup>١٣٢</sup>، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما، وبجاهد، والحسن، وقتادة... : مدة طويلة، نحواً من سنة، فلما أكلتها دابة الأرض، وهى الأرضة <sup>١٣٣</sup>، ضعفت وسقطت إلى الأرض، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة،

١٣٢ ) اختلف في قراءة قوله: " منسأته "، فقرأ عامة قراء أهل المدينة، وبعض أهل البصرة: منسأته، غير مهموز، وزعم من اعتل لقارئ ذلك أن المنسأة: العصا، وأن أصلها من نسأت بها الغنم، قال: ومن الممز الذى تركته العرب، كما تركوا همز النبی، والبرية، والخافية، وأنشد لترك الممز بيتاً لبعض الشعراء:

إذ دببت على المنسأة من هرم \* فقد تباعد عنك اللهو والغزل

وذكر الفراء عن أبي جعفر الرواسي: أنه سأل عنها أبا عمرو، فقال: منسأته بغير همز،. وقرأ عامة قراء الكوفة منسأته بالهمز، وكانهم وجها ذلك إلى أنها مفعلة، من نسأت البعير، إذا زجرته، ليزداد سيره، كما يقال: نسأت اللين، إذا صدرت عليه الماء، وهو النسيء، وكما يقال: نسا الله في أجلك، أى أدام الله في أيام حياتك. قال أبو جعفر: وهما قراءتان، قد قرأ بكل واحدة منه علماء من القراء بمعنى، فبايتهما قرأ القارئ فمصيب، وإن كنت أختار الممز فيها، لأنه الأصل. [ الطبرى: جامع البيان في تفسير القرآن جـ ٢٢ صـ

[٥١ - ٥٠]

١٣٣) الأرضة: الدويبة التى يقال لها: السرفة، والأرض فعلها، فأضيفت إليه. يقال: أرضة الخشبة أرضاً، إذا أكلتها الأرضة.... والمنسأة: العصا، لأنه ينسأ بها، أى يطرد ويؤخر، وقرئ بفتح الميم وبتخفيف الهمزة قلباً وحذفاً.

وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع غريب، وفي صحته نظر.

" قال ابن جرير: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا موسى بن مسعود، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عطاء، عن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضی الله عنهما عن النبي ﷺ قال: " كان نبي الله سليمان ﷺ إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه، فيقول لها: ما اسمك؟ فتقول: كذا، فيقول: لأى شيء أنت؟ فإن كانت تغرس غرست، وإن كانت لدواء كتبت. فبينما هو يصلى ذات يوم، إذ رأى شجرة بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروب، قال: لأى شيء أنت؟، قالت: لخراب هذا البيت، فقال سليمان ﷺ: اللهم عمّ على الجن موتى حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب، ففتحها عصا، فتوكأ عليها حولاً ميتاً، والجن تعمل، فأكلتها الأرضة فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب، ما لبثوا حولاً في العذاب المهين " ١٣٤

وقيل: إن سليمان " قال لملك الموت: إذا أمرت بي فأعلمني، فقال: أمرت بك وقد بقيت من عمرك ساعة؛ فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير، ليس له باب، فقام يصلى متكئاً على عصاه، فقبض روحه وهو متكئ عليها، وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى، فلم يكن شيطان ينظر إليه في صلاته إلا احترق، فمر به شيطان فلم يسمع صوته، ثم رجع فلم يسمع، فنظر، فإذا سليمان قد خر ميتاً، ففتحوا عنه فإذا العصا قد أكلتها الأرضة، فأرادوا أن

يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت منها في يوم وليلة مقداراً، فحسبوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنة، وكانوا يعملون بين يديه ويحسبونه حياً، فأيقن الناس أنهم لو علموا الغيب لما لبثوا في العذاب سنة... " ١٣٥

إن قراءة هذا التصور - بقاء سليمان متكئاً على عصاه لمدة سنة ميتاً - تثير عدة أسئلة:

ألم يعلم أحد في قصره - وهم يعدون بالعشرات إن لم يكن بالآلاف - بموته؟، ألم يقدم أحد له طعامه، أم أنه صام سنة كاملة؟، ألم تفتقده زوجته، وعدددهن كما جاء في التوراة ثلاثمائة، علاوة على سبعمائة من الإماء؟، من كان يدير شئون الدولة في هذه السنة؟، ألم يفتقده وزراؤه ومساعدوه فيسألون عنه؟، من الذى كان يقابل سفراء الدول وزوار دولته من مسئولى الدول المجاورة؟، وأخيراً، ألم تتحلل جثته وقد مكث مدة تتحلل فيها أجسام الموتى؟

كل هذه أسئلة توضح أن مسألة مكوثه ميتاً فوق عصاه سنة كاملة ليست إلا أسطورة وخرافة، لا يصدقها العقل، ولا يقرها الواقع، خاصة وأن القرآن الكريم لم يذكر شيئاً مما نسجه الفكر الخرافى من أوهام وترهات، لو قبلها فكر العوام، واستحسنتها طبيعة الطبقات الدنيا - ثقافة -، لأنها تشبع لديهم غريزة حب الغرائب من الأخبار، والولوع بكل ما من شأنه إثارة العواطف، ودغدغة المشاعر، الأمر الذى قد يفيد - على نحو ما - في قيادة هذه الطبقات، ودفعها نحو قبول ما يعرض عليهم من مبادئ وقيم دينية، تصلح الفرد، وتحافظ على

تماسك المجتمع. غير أن الفلاسفة والمفكرين لا يقبلون هذا النوع من الأساطير، ولهذا جاء القرآن الكريم لإخبار اللاحقين على نحو يتيح لهؤلاء أن يكتشفوا جانباً فكرياً في هذه الروايات، ففسروا هذه الآية على نحو يتفق مع العقل، ويتسق مع المنطق، ويتناغم مع الواقع، حيث يحررها من هذه التصورات الخرافية؛ فقد قال عبد الوهاب النجار:

" ذُكِرَ أن المفسرين يذكرون في موته عجائب، ويستدلون بالآية الكريمة: " فلما قضينا عليه الموت... الآية "، ويؤولونها على الوجه الذي يدعو إلى الغرابة..... وكل ما جاء في هذا الباب أحاديث منكورة.....

" ونحن إذا نظرنا إلى متن الحديث وجدناه مضطرباً، ومخالفاً لسنة الأنبياء، وخصوصاً في عهد بنى إسرائيل؛ إذ شريعتهم تقضى على كل إسرائيلى أنه يأتى في العيد، ويقرب القرابين، ويقوم بالطقوس الدينية، وسليمان شريعته التى يتبعها هى التوراة التى جاء بها موسى، وليس له شريعة سواها. وغير معقول أن يكون سليمان - النبى الكريم - هو الذى يخاف الشريعة، ويمكث فى محرابه دون أن يقوم بالمراسيم التى أوجبتها التوراة على كل إسرائيلى، فيغيب عنها فى وقت يقوم بها الرؤساء و السوقة. وإذا فعل يكون قد سن لبنى إسرائيل سنة سيئة تجرى سواه على مخالفة الشريعة التى أمر الله بنى إسرائيل بحفظها وعدم الإخلال بها. ومعلوم أن اليهود فى عيد الفصح يجب عليهم أن يأكلوا الفطير سبعة أيام، وأن لا يرى الخمر فى جميع تخومهم، فإذا كان سليمان قد مكث ميتاً سنة، أفما كان له زوجة تسأل عنه، وتبعث له بالفطير الواجب فى الفصح، فتعلم أنه ميت، وعنده ألف امرأة؟.....

"..... ثم إن سليمان بمقتضى مركز الملك الذى يشغله، عليه مسئولية إقامة العدل بين الناس - كما كان يفعل داود - وقد رأينا داود فى فصل خصومة

الحرث.... وهو أيضاً بمقتضى منصبه الملكى تأتية الوفود من الملوك، ويطالعه العرفاء والرؤساء بمشكلات نواحيهم، فليس من المعقول أن يكون قد مات وبقي سنة كاملة، لا يعلم بموته أحد، ويهمل إهمالاً لا يهمله أحد من السوقة!!! والمسألة تحمل أحد وجهين:

الأول: أن يكون قد مات كما يموت سائر الناس، وبقي موته معمى على الجن دون سواهم من الإنس، ودفن وانتهى أمره، وقام فى الملك ابنه، والجن فى أمكنة نائية كتدمر لا يفترون عن العمل دائبين عليه، خشية أن يعاقبهم سليمان. وبعد مدة - لم يحددها القرآن - علم أحد الجن بموته، إذ رأى عصاه ملقاة على الأرض فرفعها، فإذا الأرضة قد أكلتها، فاستدل من أكل الأرضة إياها على أن سليمان قد تركها على الأرض مدة طويلة. وما كان ليتركها إلا لحدث من موت أو مرض. فتقصى الأمر، فإذا هو قد مات، فأعلم الجن بالأمر، وكانوا لا يعلمونه، كما كانوا يوهمون الناس بأنهم يعلمون الغيب، وأيقنوا أنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين.

وعلى هذا الوجه يكون قوله تعالى: " فلما خر "، أى مات، لا ( خر ) بمعنى وقع على الأرض لعجز العصا عن حفظ توازنه،..... وذلك أن الرجل إذا مات: خر، ومن ذلك قول حكيم بن حزام: بايعت رسول الله ﷺ على ألا أخرج إلا قائماً، معناه ألا أموت، لأنه إذا مات فقد خر.

الوجه الثانى: أنه عليه السلام وجد فى محرابه، فأدركه الموت وهو جالس متكئ على عصاه، فجاءت الأرضة، واشتغلت بأكل طرف العصا فأكلت بعضه، فانهار الجزء الذى أكلته، فاختلف توازنه، فخر، فدل ذلك أهله على موته. وأكل جزء من العصا يكون انهياره سبباً فى اختلال التوازن لا يحتاج إلى زمن

طويل.... ١٣٦١

تستطيع الدولة القوية أن تبسط سلطانها على مرافق الدولة، إذ كلما كانت أجهزة الرقابة واعية، ومدركة لواجبها، وحريصة على القيام بما تفرضه عليها الأنظمة واللوائح، انتظم العمل في دواوين الدولة المختلفة، واستقام سلوك القائمين على مؤسساتها، فلا تفریط في العمل، ولا تماون في الإنتاج، ولا تكاسل في أداء المهمات المنوطة بكل فرد من أفراد دولا ب العمل في الدولة، ولا اختلاس لموارد الدولة، فليس هناك ضياع لحقوق الأفراد، ولا إهمال في أى مجال من مجالات الحياة في المجتمع، فالكل يعمل لأنه يخاف من العقاب، وكل يخشى عين رقباء الدولة، حتى لا يقع في الخطأ فيحاسب حساباً لا يستطيع تحمله، أو يتهم بالبطء في عمل ما وكل به، حتى لا يجد نفسه أمام من يحاسبه حساباً عسيراً.

كذلك إذا كانت أجهزة الأمن بأسطة قوتها في كل ركن من أركان الدولة، عم الأمن والأمان ربوع الوطن، واستقر الاطمئنان في نفوس لناس، وأيقنوا أنهم تحت درع يقيهم شر المفسدين، ويحفظهم من اعتداء اللصوص والمفسدين، ويحميهم من سلطان المستغلين، فيطمئنون على أنفسهم وأهليهم، وعلى أموالهم وممتلكاتهم.

ينعم المجتمع بهذا كله طالما كانت الدولة قوية بأجهزتها الأمنية والرقابية، أما إذا تغلغل الفساد في أجهزتها، وشعر الناس بضعفها وتهاونها في مقاومة هذه الظاهرة، وتهاونها في الأخذ على يد المجرمين والفاستدين، فرأوا بأعينهم رخاوتها وعجزها عن ضبط الأمور، وغض الطرف عن الفساد المستشري في جنباتها،

وضعف مؤسساتها عن التصدى لهذا الفساد المتغلغل في مؤسساتها، أو تهاون الأجهزة في ملاحقة الفاسدين وضبط المجرمين..... إلخ إذا رأت العناصر - وهم العاملون من الأفراد الجهوليين في الدولة، المعبر عنهم بالجن ( لأنهم مستترون ) أى من غير المعروفين كما سبق بيان ذلك - التى كانت تعمل بجِد ونشاط خوفاً من العقاب، تحرروا من الخوف، لأن الرقابة عليهم أصابها الوهن والضعف، فيتكاسلون ويهملون في عملهم؛ إذ عندما كانت الدولة قوية، باسطة عيونها في كل مكان، كانت فرائض العاملين فيها مرتعدة، فبدلوا جهداً كبيراً في العمل، وظلوا هكذا حتى بعد أن بدأ ضعف الدولة، لأنهم لم يدركوا هذا الضعف إلا عندما عم الفساد أركان الدولة، فندموا على بقائهم في عذاب هذا العمل هذه المدة الطويلة، لأنهم لو علموا ذلك مسبقاً لما استمروا في هذا العمل الشاق، وهو العذاب المهين؛ فضعف الدولة بدأ في أواخر عصر سليمان عليه السلام، ولكن لم يدركه هؤلاء العمال إلا عندما مات سليمان عليه السلام. هذا هو مغزى سرد هذه القصة في القرآن الكريم كما نفهمه.

أضف إلى ذلك أن هناك جانباً آخر يمكن أن نفهمه من ورود القصة في القرآن الكريم، ألا وهو بيان أنه لا أحد يعلم الغيب إلا الله، فما كان شائعاً في المجتمع من أن ما يطلقون عليه " الجن " يعلم الغيب ليس صحيحاً بدليل ما أشار إليه القرآن الكريم ضمناً من أن الجن لم يعلم الغيب كما يزعمون، فيجب على المسلمين أن يقلعوا عن هذا الفهم فيدركوا أن علم الغيب عند الله، لم يخبر به أحداً إلا من ارتضى من رسول، يقول تعالى:

﴿ عَنِ الْمَغِيبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَن أَرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدِ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٨]

" أى أنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى، الذى هو مصطفى للنبوّة خاصة، لا كل مرتضى، وفى هذا إبطال للكرامات، لأن الذى تضاف إليهم، وإن كانوا أولياء مرتضين، فليسوا يرسل. وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب وإبطال الكهانة والتنجيم، لأن أصحابها أبعد شيء عن الارتضاء وأدخله فى السخط ".<sup>١٣٧</sup>